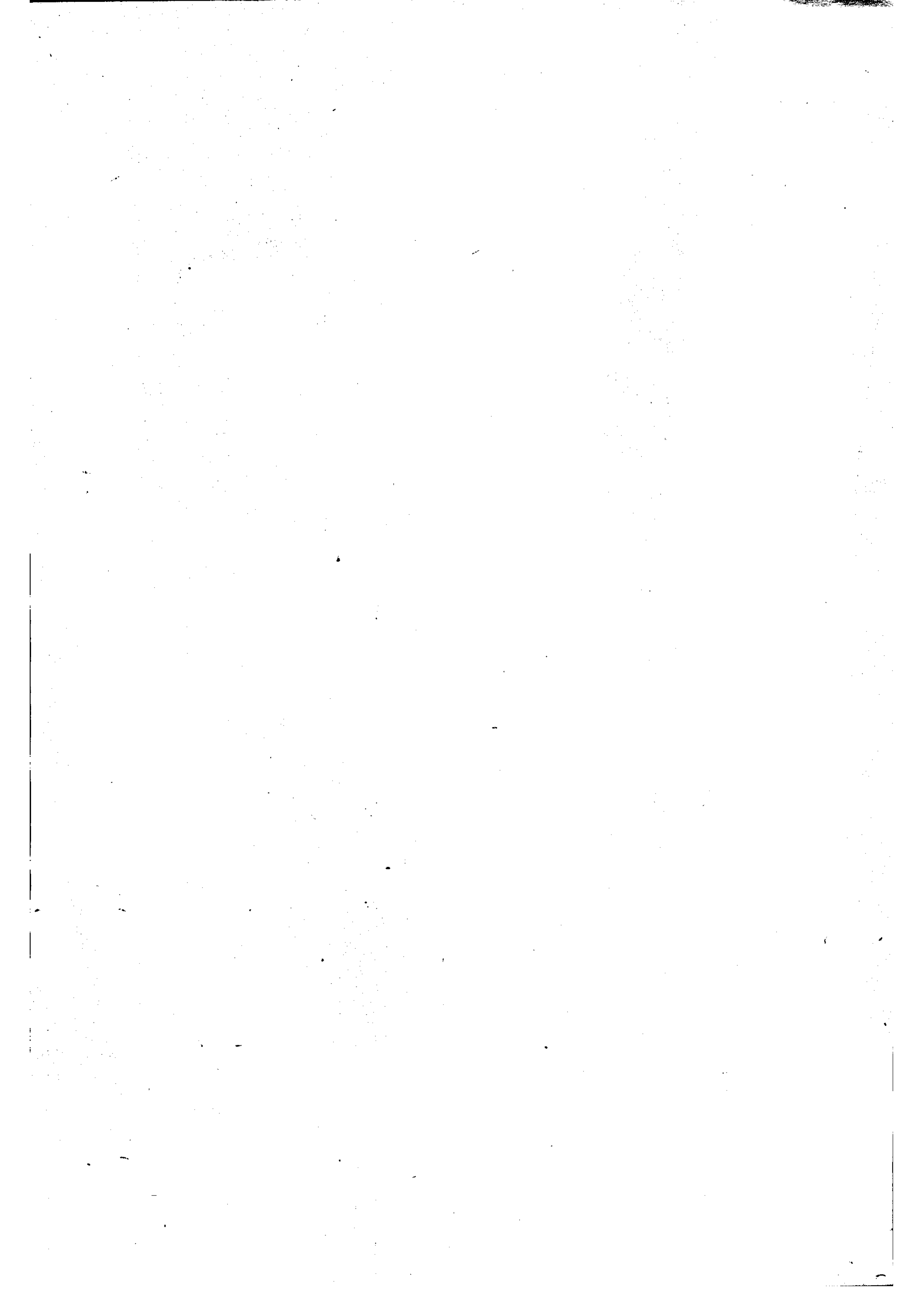
# فى الأدب الجاهلى

## دراسة ونقد

دكتور
علي علي صبح



بسم الله الرحمن الرحيم

# تقديم

نحمدك اللهم ربى سبحانك أنت العليم الحكيم ، ونصلى ونسلم على أفضل خلقك محمد ﷺ ، فضلته بكتابك الكريم : « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين » ﷺ وعلى آله وصحبه « رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه » .

أعز شىء على اللغة العربية هو تراثها العريق ، تستمد أصالتها من معينها الفياض ، وتنبض فيها الحياة بروافدها العميقة القوية ؛ لتظل قلعة حصينة ضد الغزو اللغوى والفكرى ، وتحطم موجات الردة العامية المسمومة ، وتحارب التعصب الإقليمى البغيض ؛ فتبقى لغتنا موصولة بتراثها الحضارى الضخم ، يفيض بحرها الزاخر بالدر الكامن ، والجمال الآسر ، يقول المرحوم حافظ إبراهيم :

وسعت كتاب الله لفظا وغاية ... وما ضقت عن آى به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسيق أسما لمخترعات
أنا البحر فى أحشائه الدر كامن ... فهل سألوا الغواص عن صدفاتى ! ؟

والأدب فى العصر الجاهلى هو السجل الحافل باللغة العربية وتراثها الشامخ نزل بها القرآن الكريم ؛ لتبقى حية خالدة : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ، ولا أدل على بقاء اللغة وأدبها أصيلة عريقة أن ترى بعض الطاعنين على أدبها الجاهلى القديم بأنه منحول على عصرهم : تراه يكتب أروع فصوله فى أدبها عن الشعر الجاهلى ؛ ليكشف عن التراث

اللغوى الضخم ، وعن الفطرة النفاذة إليها ، وعن قريحتهم الصافية ، حتى في وحشى اللغة وغريبها .

الأدب الجاهلى تراث لغوى وأدبى عريق وضخم ، يصور أمة صارت بلغتها وأدبها بعد ذلك هى الأمة ، التى سادت بحضارتها العربية الإسلامية ، وغيرت مجرى التاريخ فى العالم كله وكانت ولا زالت هى الأساس دائماً لكل نهضة وتقدم ورقى .

وكلما عاد الدارس إلى « نصوص الأدب الجاهلى بالدراسة والتأمل والتحليل » وجد فيها جديدا ، وتراثا وأخلاقا ، وتاريخا وأمجادا ، ومجتمعا وحياة يقول الشاعر أيضاً :

وفاخرت أهل الغرب والشرق مطارق

حيا بتلك الأعظم النخرات

علي علي صبح

فى : ربيع أول ١٤٠٦ هـ .
نوفمبر ١٩٨٥ م .

# الفصل الأول

## من الشعر الجاهلى فى ضوء التحليل والنقد

---

### النابغة الذبيانى

هو أبو أمامة زياد بن معاوية بن ضباب بن جناب بن يربوع بن غيظ ابن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان المضرى .

ذكر الرواة والأدباء أسبابا فى تلقيبه بالنابغة منها :

أنه لم يولد شاعرا ، ليتعهد موهبته خلال نشأته وحياته لكنه قال الشعر مرة واحدة ، ونبغ فيه دفعة بلا مقدمات وهو موفور الحنكة بتجارب الحياة .

ومنها أنه فاق غيره من الشعراء ، ولم يتبذل الشعر ، وإنما قصد الملوك يمدحهم فى إباء وعزة .

ومنها أن سيرورة قوله : « فقد نبغت لهم مناشئون » خلع عليه هذا اللقب .

سعدت قبيلة ذبيان بجوار قبيلة عبس فى الشمال الشرقى من بلاد نجد إلى أن وقعت بينهم حروب طاحنة بسبب رهان فى مسابقة قامت على الغدر والخاتلة .

ونشأ النابغة فى معترك القبيلتين ، وحلقت شهرته شاعرا من فحول

الجاهلية ، وناقدا فى الحكومة الأدبية حين يجتمع إليه الشعراء لينشدوا قصائدهم فى سوق عكاظ وهو فى قبة من أدم . وحين اتصل بملوك المناذرة والغساسنة فى الحيرة والشام. ، ومدحهم بغرر قصائده فى مجالس المنادمة والرضوان، وسما بفن الاعتذار أيضاً حين ذلك وشى به الحساد ، وعكروا عليه صفو المجالس.

اتصل الشاعر بملك الحيرة النعمان بن المنذر أبى قابوس الذى حكم من عام (٥٨٠ — ٦٠٢ م) فكرمه ونادمه فى مجالسه العامرة بالعطايا الزاخرة ؛ فكان يأكل فى آنية من فضة وذهب ، ثم اشتعلت نار العداوة والحقد فأوقعوا بينه وبين النعمان فأوغروا صدره حتى غضب عليه ، وتوعده وهدده.

ومن سعاية الواشين ما أدخله المنخل اليشكرى من تأويلات مسمومة نسبها إلى النابغة فى قصيدته التى وصف فيها المتجردة زوجة النعمان ، ووضعوا على لسانه شعرا يعكر صفوه ويملأ قلبه ضيقا وغيظا حتى أقسم أن يقتله. ومما وضع عليه التعريض بالنعمان ، فأمه كانت بنت صائغ من فدك وذلك فى قولهم :

قبح الله ثم ثنى بلعن      وارث الصائغ الجبان الجهولا
من يضر الأدنى ويعجز عن ضـــر الأقاصى ومن يخون الخليلا
يجمع الجيش ذا الألوف ويغزو      ثم لا يرزأ العـــدو فتيلا

وخشى النابغة الفتك به فهرب من الحيرة إلى ملوك الغساسنة بالشام ، ورحب به عمرو بن يزيد بن الحارث الأصغر ، وأمطره بقصائد المدح منها « البائية » التى سنقف عندها بالدراسة والتحليل ومطلعها :

كليني لهم يا أميمة ناصب      وليل أقاسيه بطىء الكواكب

وعلى الرغم من فيض العطايا وكثرة المكرمات كان قلبه مع الحيرة ، وظل يتخذ الأسباب لكى يعيد صفو الحياة كما كانت ؛ فارتقى بفن الاعتذار حتى أصبح غرضا مستقلا يسيل رقة وعذوبة ، لم يسبق إليه فى استقلاله وشكله ومضمونه ، مما جعل الأدباء ينسبونه إليه .

وتوالت اعتذارياته على النعمان حتى عفا عنه بعد موت عمرو بن الحارث الغسانى ، وعاد إليه ليعيش فى كنفه وفضله ، وظل بينهم يمدحهم إلى أن مات فى زمن النبى ﷺ قبل البعثة .

ومن اعتذاره قوله :

أتاك امرؤ مستبطن لى بغضة ... له من عدو مثل ذلك شافع

أتاك بقول هلهل النسج كاذب ... ولم يأت بالحق الذى هو ناصع

أتاك بقول لم أكن لأقوله ... ولو كبلت فى ساعدى الجوامع

إلى قوله :

فإن كنت لا ذو الضغن عنى مكذب
ولا حلفى على البراءة نافع

ولا أنا مأمون بشىء أقوله ... وأنت بأمر لا محالة واقع

فإنك كالليل الذى هو مدركى
وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

أتوعد عبداً لم يخنك أمانة ... ويترك عبد ظالم وهو ظالع

وأنت ربيع ينعش الناس سيبه ... وسيف أعيرته المنية قاطع

أبى الله إلا عدله ووفاءه
فلا النكر معروف ولا العرف ضائع

ومن اعتذاره للنعمان قوله :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة    وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن كنت قد بلغت عنى خيانة    لمبلغك الواشى أغش وأكذب
ولكننى كنت امرءاً لى جانب    من الأرض فيه مستراد ومذهب
ملوك وإخوان إذا ما أتيتهم    أحكم فى أموالهم وأقرب
كفعلك فى قوم أراك اصطنعتهم    فلم ترهم فى شكر ذلك أذنبوا
فلا تتركنى بالوعيد كأننى    إلى الناس مطلى به القار أجرب
ألم تر أن الله أعطاك سورة    ترى كل ملك دونها يتذبذب
فإنك شمس والملوك كواكب    إذا طلعت لم يبد منهن كوكب
ولست بمستبق أخاً لا تلمه    على شعث أى الرجال المهذب
فإن أك مظلوما فعبد ظلمته    وإن تك ذا عتبى فمثلك يعتب

ومن اعتذاره معلقته عند بعض الأدباء ومطلعها :

يا دارمية بالعلياء فالسند    أقوت وطال عليها سالف الأبد

ومن قوله السائر لغزارة معناه وعذوبة ألفاظه :

فتى تم فيه ما يسر صديقه    على أن فيه ما يسوء الأعاديا
فتى كملت أخلاقه غير أنه    جواد فما يبقى من المال باقيا

وقوله فى الرثاء :

المرء يأمل أن يعيش    وطول عيش قد يضره
تفنى بشاشته ويبقى    بعد حلو العيش مره
وتخونه الأيام حتى    لا يرى شيئاً يسره
كم شامت بى إن هلكت    وقائل : لله دره

قال النابغة يمدح عمرو الغسانى :

— ١ —

كِليني لهمٍّ يا أميمةَ ناصِب — وليل أقاسيه بطىء الكواكب
تقاعسَ حتى قلتُ ليس بمنقض — وليس الذى يرعى النجوم بآيب
وصدر أراح الليل عازبَ همه — تضاعف فيه الحزن من كل جانب(١)
على لعمرو نعمةٌ بعد نعمةٍ — لوالده ليست بذات عقارب
حلفتُ يميناً غيرَ ذى مثنويةٍ — ولا علمَ إلا حُسنُ ظنٍ بصاحب
لئن كان للقبرين قبر بجلّقٍ — وقبر بصيداءَ الذى عند حارب
وللحارث الجفْنىّ سيد قومه — ليلتمسنْ بالجيش دارَ المحارب
وثقتُ له بالنصر إذ قيل قد غزَت — كتائبُ من غسان غيرُ أشائب
بنو عمهِ دُنيا وعمرُو بن عامر — أولئك قوم بأسهم غيرُ كاذب(٢)

— ٢ —

إذا ما غزَو بالجيش حلّق فوقهم — عصائبُ طيرٍ تهتدى بعصائب

---

(١) كليني : دعيني ـ أميمة : اسم امرأة ـ ناصب : متعب ـ بطىء الكواكب : طويل ـ تقاعس : تأخر ـ يرعى النجوم : يهدى النجوم فهو كالراعى ـ آيب : من آب النجم إذا غاب ـ أراح : رد ـ عازب : غائب .

(٢) عقارب : تكديرها ـ مثنوية : مستثناه ـ جلق : دمشق ـ صيداء : مدينة بالشام على شاطىء البحر ـ وحارب : مدينة قريبة منها ـ وصاحبا القبرين : هما الأب والجد الأقرب له ـ الحارث الجفنى : هو الجد الثالث سيد آل جفنة ـ أشائب : أخلاط ـ بأسهم : شجاعتهم ـ غير كاذب : واقعة وحقيقة .

يصاحبنهم حتى يُغرْنَ مُغارَهم ... من الضاريات بالدماء الدوارب

تراهنَّ خلف القوم خزراً عيونها ... جلوسَ الشيوخ فى ثياب المرانب

جوانحَ قد أيقنَّ أن قبيله ... إذا ما التقى الجمعان أولُ غالب

لهن عليهم عادة قد عرفْنها ... إذا عُرض الخطِّىّ فوق الكواثب

على عارفات للطعان عوابسٍ ... بهن كلومٌ بين دامٍ وجالب(١)

إذا استُنزلوا عنهنَّ للطعن أرقلوا ... إلى الموت إرقالَ الجمال المصاعب

فهم يتساقون المنية بينهم ... بأيديهم بيضٌ رقاقُ المضارب

يطيرُ فُضاضاً بينها كل قونسٍ ... ويتبعها منهم فَراش الحواجب

ولا عيبَ فيهم غير أن سيوفهم ... بهنَّ فلول من قراع الكتائب

تُورِثْنَ من أزمان يوم حليمةٍ ... إلى اليوم قد جُرِّبْن كل التجارب

تقدُّ السلوقىَّ المضاعفَ نسجُه ... وتوقدُ الصفاح نارُ الحباحب

بضربٍ يُزيل الهامَ عن سكناتِه ... وطعن كإيزاغ المخاض الضوارب(٢)

---

(١) التحليق: ارتفاع الطير كالحلقة ـ عصائب : جماعات ـ يغرن : يهجمن ـ الضاريات : المتدربات ـ خزر : تضييق الجفون لتركيز الرؤية والتوفز ـ المرانب : الثياب المبطنة بفراء الأرانب ـ عارفات : صابرات الخطى : رماح تنسب إلى الخط ـ كلوم : جراح ـ دام : يسيل دماً ـ جالب : يابس .

(٢) أرقلوا : أسرعوا ـ الجمال المصاعب : الفحل القوى الذى لم يحبل ـ يتساقون المنية : يتقاتلون ـ بيض : سيوف ـ رقاق : حادة ـ فضاضا : تفرقا ـ القونس : أعلى البيضة وتكون من فولاذ على الرأس ـ فراش الحواجب : فراش الجمجمة ـ فلول : كسور ـ قراع : المضاربة بالسيوف =

— ٣ —

لهم شيمة لم يُعطها الله غيرَهم
من الجود ، والأحلامُ غيرُ عوازب

محلتهمْ ذات الإله ، ودينهمْ قويم ، فما يرجون غير العواقب

رقاقُ النعال طيبٌ حُجزاتهمْ يحيونَ بالريحان يوم السباسب

تحييهمْ بيضُ الولائدِ بينهم وأكسية الإضريج فوق المشاجب

يصونون أجساداً قديماً نعيمها بخالصة الأردان خضر المناكب

ولا يحسبون الخير لا شرَّ بعده ولا يحسبون الشر ضَربةَ لازب

حبوتُ بها غسانَ إذ كنتُ لاحقاً
بقومى ، وإذ أعيتْ علىَّ مذاهبى(١)

---

= - حليمة : بنت أحد ملوكهم طيبت الجيش لما عاد منتصراً فى يوم الغساسنة على المناذرة وفى المثل : ما يوم حليمة بسر - السلوقى الدرع المنسوب إلى بلدة سلوقية - الصفاح : الحجارة العراض - نار الحباحب : شعاع ذباب الحباحب يضىء ليلا - سكناته : أعناقه - إيزاغ : اندفاع بول الناقة بشدة - المخاض : الحوامل التى تضرب بأرجلها بعنف .

(١) شيمة : خليقة وسجية - الأحلام : العقول - عوازب : شوارد محلتهم : دار سكناهم - ذات الإله : بيت المقدس - العواقب : جزاء الأعمال - رقاق النعال : نعالهم رقيقة لا غليظة كناية عن رفاهيتهم - طيب حجزاتهم : الحجزة : ملتقى شد الإزار على الوسط ويكنى بذلك عن عن عفتهم - الريحان : الرائحة الطيبة - السباسب : الشعانين عيد الغساسنة =

. . . . . . . . . . . . .

---

= وكانوا نصارى ـ بيض الولائد : الإماء البيض ـ أكسية الإضريج : ثياب الخز الأحمر ـ المشاجب : الأعواد التى تنشر عليها الملابس ـ الأردان : مقدمات أكام الثياب ـ اللازب : الدائم الثابت ـ حبوت : خصصت ـ لاحقاً بقومى هارباً من النعمان ـ أعيت على مذاهبى ـ ضاقت عليه السبل خوفا ورعباً .

## شرح القصيدة :

— ١ —

تزاحمت دياجير الهموم ، تمزق النابغة بالأحزان فى ظلام الليل ، فأرادت أميمة أن تنتزعه من أوصابه ، وقد تسمرت بتلابيب الجسم والليل معاً ، لكن الشاعر يرجوها رغم أنفه أن تتركه ليقاسى فى ليل تناهى فى الطول والتأخير ، تجمدت فيه الكواكب وثبتت النجوم فى مكانها لا تتزحزح ، فأطبق الليل والظلام على صدره وأنفاسه ، وأحيا فيه هموم الماضى ، ورد إليه أحزانه . وأصبح النهار حلماً يرقبه ويرجوه ، لينسى ذلك فى زحام الحياة والناس ، وهو يغدو بينهم ويروح ، فيتسلى بصوارفها التى تذهب بآلامه الثقيلة .

ومن أحب الصوارف إلى نفسه أن يرحل إلى الغساسنة فى بلد لاتنزل بساحتها الهموم ، حيث العيش الكريم والحياة الآمنة ، فهو لا ينسى ما أسدوه إليه الآباء والأجداد من النعيم الوارف الظلال بغير منّ أو أذى . ويقسم يميناً لا حنث فيه أن مليكهم عمرو بن زيد قد ورث النعيم والشجاعة عن قوم ذى أصالة فى النسب سادوا فى بلاد الشام ، لا يجاريهم فيها أحد ، وإنه على ثقة كبيرة من النصر على أعدائهم المناذرة ، وهو فى كتائب من بنى أعمامه ، ينزلون بهم الكوارث والهزيمة وهم فى ديارهم ، ليشفى صدور رعيته .

— ٢ —

وحينما يزحف جيش الغساسنة فى ساحة القتال تتسارع جماعات الطير هنا وهناك ، يتعاقب بعضها بعضاً ، وتتماوج أفواجاً محلقة فى سماء المعركة ،

فقد تعودت على هذا الجيش المظفر ، وصاحبته فى مواقعه ، لتجلس فى رزانة ووقار على ثقة كبيرة جلوس الشيوخ ، ولا تزال تضيق جفونها متوفزة ، ليزداد البصر حدة ورؤية .

لقد تعودت جماعات الطيور على الشبع من لحوم القتلى إذا ما التقى الجمعان ، فهو واثقة من النصر والشبع معاً ، لأن الغساسنة اعتادوا الحروب بسيوف خطية مشهورة يتضاربون بها على خيل صابرة على الإقدام والطعان ، فتتعرض لطعنات الأعداء فتتركه ما بين مجروح قد جفت جروحه ، وبين مجروح مخضب بدمائه .

وإن ضاقت ساحة القتال بهم ترجلوا عن الخيل مسرعين ، يهدرون كالجمال ، ويصولون كالخيل ، يتساقون المنايا ، ويخوضون غمارها بلا خوف ولا وجل غير هيابين ولا مبالين ، يتجاوزون الحصون المنيعة ، وتخترق رماحهم الدروع السلوقية القوية بسيوف ماضية بهن كسور من كثرة النزال ، فتطير الرؤوس من فوقها تتبعها الجماجم ويتفجر الدم قوياً متدفقاً ، ويتطاير الشرر حين تصطدم بالصخور ، فتضىء الليل كأطياف أجنحة ذباب الحباحب فى الظلام .

وليس غريباً عليهم هذه الانتصارات ، فقد تعودوا عليها منذ أزمان بعيدة ، فما يوم حليمة بسر ، دون الأرجاء به ، فهو يوم الغساسنة على المناذرة .

— ٣ —

ليست الغساسنة ملوك حرب فحسب ، بل هم كذلك قوم اشتهروا بعراقتهم ونفاسة معادنهم ، لهم أخلاق كريمة ، وشيم يترفعون بها بين

أقرانهم ، اختصوا بها دون غيرهم ، فهم يتصفون بالعقول الناقبة ، والبديهة الحاضرة ، والذكاء الحاد ، يسكنون بلاداً عزيزة طاهرة فى أماكن مقدسة بالأديان والرسالات أمنوا بها وبدين الله القويم ، يوحدون الله عز وجل ، ويخافونه ويخشون عقابه .

إنهم قوم يعيشون فى رغد من العيش ، يتقلبون فى رفاهية ونعيم ، فنعالهم رقيقة ، يركبون الخيل ولا يمشون ، وهم ملوك لهم عاداتهم وأعيادهم ، يقيمون الأفراح والولائم يوم « الشعانين » ، وتحييهم الإماء بالرياحين وعليهم ثياب غالية طاهرة من الخز ذى الألوان الزاهية ، ويعلقون غيرها فوق المشاجب ، يتناوبون عليها ، تحفظ أجساداً رقيقة ناعمة ، وهم قوم حكماء ، يدركون عواقب الأمور يضعونها فى نصابها لهم حنكة بتصرفات الدهر وحدثان الزمان ، فلا يفرطون فرحا بالنصر ، ولا يغترون بالخير ابتهاجا ، كما لا يحزنون على ما يفوتهم ، أو يبتئسون على زوال النعيم ، يعرفون مواطن الأمور فى اعتدال ، كما أنهم على بصر بمضايق الصبر فى حزم وعزم بلا بطر أو قنوط .

---

# فى ظلال القصيدة

## الغرض من القصيدة ومنهجها :

الشأن فى قصيدة العصر الجاهلى أن تكون متعددة الأغراض ، تبدأ ببكاء الديار والوقوف على الأطلال ، ثم ينتقل إلى الغزل والتشبيب ، ثم إلى وصف الراحلة والرحلة ، وأخيراً الغرض الأساسى وهو المدح مثلا وهكذا عند الشعراء إلا النادر من القصائد التى خرجت على النمط السابق .

وأرى أن النابغة لم يسلك هذا الصنيع بل قامت قصيدته على غرض واحد ، وهو المدح لملوك الغساسنة ، ولم تتعدد الأغراض فيها كالشأن فى العصر الجاهلى .

وما يوهم تعدد الأغراض فى بيت المطلع الوحيد فليس غرضا مستقلا ، ولا غزلا على النحو المتعارف عليه ، بل جعل الشاعر أميمة رمزا للحوار مع نفسه يشخص فيه مواجعه وهمومه ، التى أقضت مضاجعه ، وأصبح لا يطيق طول الليل ، وهذه الهموم والأحزان لا تتصل بحب أميمة ولا التغزل بها ، وإنما تتصل بالصراع النفسى العنيف بين الممدوحين والمنافسة الأدبية بينهما ، وبين ممدوح عزيز عليه راح عنه وهو النعمان بن المنذر ، وشى عنده الواشون ، فأفسدوا علاقته بالشاعر ، وهدده بالقتل ، فهرب إلى قومه محروما من الجاه الأثير والمجد السامق ، والنعيم المقيم ، وظلت الهموم تغتاله من حين إلى آخر ، فصار يخفف من آلامها بعد ذلك باعتذارياته

إلى النعمان ، حتى نشأ على يديه فن كامل فى الأدب العربى وهو « فن الاعتذار » .

وبين ممدوح آخر جديد مقبل عليه وهو عمرو الغسانى ، يخشى رفضه أو غدره ، فلا يلقاه بوجه طلق ولا يحسن استقباله ومعاشرته ، أو يغدر به لأنه قد مدح المناذرة أعدائه ، فيقع صريع المنافسة بين المناذرة والغساسنة وما أقسى هذه الهموم التى تضاعف فيها الحزن من كل جانب ؟

ومن جانب الغسانيين أيضاً فقد أثقلت أيادى عمرو البيضاء كاهله ، كما أثقلت أيادى آبائه وأجداده كواهل قومه ، فعليه وعلى قومه لعمرو نعمه بعد نعمة لوالده ، ليست بذات عقارب ، لأنها صدرت عن قوم كرام لا عن لئام ، ولذلك أقسم بيمين لا حنث فيه أنه يحسن الظن بهم .

ثم أخذ يعرض شيم الممدوح وشمائله ، فهم يرجعون إلى أصول عريقة ، على ثقة من النصر ، يتعاونون مع بنى عمهم ، وهكذا حتى نهاية القصيدة ، فيصفهم بالقوة والشجاعة والمروءة والجود والكرم ، والحنكة والحكمة ، والوقار والعقل الرزين ، والنعيم والخلق الكريم ، والدين والعفة والحصافة وغيرها .

والنابغة فى مدحه يسير على نمط الشعراء فى عصره يترسم خطاهم فى تناول معانى المدح وعناصره ، وهو ما اتفق فيه عمود الشعر العربى فى باب خصائص الأغراض الأدبية .

وعلى ذلك فنهج القصيدة هنا يختلف عما شاع فى عمود الشعر من تعدد الأغراض ، وجاءت القصيدة فى غرض واحد ، لكن ما عدا ذلك من خصائص عمود الشعر ، فقد جاءت القصيدة على نمطه وموازينه من حيث

المعانى والأفكار ، وعناصر المدح وسماته وملامح الألفاظ والأساليب والخيال وصوره ، والموسيقى واتحاد الوزن والقافية .

لذلك كانت قصيدة النابغة تترسم منهج القصيدة فى عمود الشعر العربى فيما عدا تعدد الأغراض ، فقد اقتصرت على غرض واحد وهو المدح .

وهذا الاتجاه نادر عند الشعراء فى العصر الجاهلى واشتهر به النابغة من بين شعراء عصره ، فقد عرف عنه أنه شيخ وقور ، لا يضرب كغيره بباع طويل فى الغزل والمجون وإن وقعت له أبيات فى الغزل يجارى فيها شعراء عصره لا تجد فيها خصائص الغزل المعروف كالمعلقة ومطلعها :

يا دارمية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأبد
وقفت بها أصيلا كى أسائلها عيت جوابا وما بالربع من أحد

وحين يبلغ الغاية فى الغزل يقول :

أضحت خلاء وأضحى أهلها احتملوا
أخنى عليها الذى أخنى على لبد

عناصر الموضوع وخصائصه ( )

عناصر الموضوع فى القصيدة ، ومعانيها التى تتلاحم فى بناء الغرض تشمل :

أولا : فى مطلع القصيدة صور النابغة فى الأبيات الثلاثة دوافع المدح النفسية ، ومنطلق الرغبة ، والمنادمة المرتقبة فى بلاط الغسانيين ، ألا وهى الهموم التى نازعته ، ما بين صراعين عنيفين : صراع الرعب خوفا من انتقام النعمان ، وصراع الخوف من رفض الغساسنة ، وغلق أبواب

النعيم أمامه بعد أن تحطمت آماله على أبواب الوشاة والحاقدين فى ساحة المناذرة . إنه فى صراع نفسى عنيف ، يريد أن يعبر منه إلى شاطىء الأمن والرخاء ، حتى اهتدى إلى معبر ، يشرف عليه عمرو الغسانى من قصر النعيم وعراقة المجد .

ثانياً : ذكر الشاعر مفاخر الممدوح وآبائه وأجداده عليه وعلى قومه ، وأقسم بيمين لا حنث فيه أن الجود لم يقتصر على العطاء والنعيم ، بل تعداه إلى النصر ، فهو معقود بنواصيهم إذا ما غزوهم وبنوعمهم فبأسهم شديد .

ثالثاً : تعود الطير على صحبتهم ، لأنها على ثقة دائماً من الظفر ، فتغدو خماصا وتغدو بطانا .

رابعاً : الغساسنة أبطال فى معارك القتال ، شجعان يقاتلون بسيوف خطية على جياد متعودات على الطعان ، عوابس لا تعبأن بما أصابها من جروح دامية أو جروح قد جفت .

خامساً : وهم شجعان أيضاً إذا ترجلوا ، يسرعون إلى المنية لا يهابون ، فتكسرت سيوفهم من كثرة القتلى وضرب الدروع ، والاصطدام بالصخور ، ولا عجب فما يوم حليمه بسر ؟

سادساً : وليست الشجاعة وحدها من شيمهم ، بل سجاياهم كثيرة منها : الجود ، والعقل الثاقب ، والمقام الطاهر المقدس ، ولهم دين قويم ، وأهل بصر وحذر ، وأصحاب حنكة يسبرون بها عواقب الأمور .

ويتصفون بالنعيم والرخاء ، والطهر والعفة ، وهم سادة أشراف تخدمهم الولائد البيض ، ويحيونهم بالريحان فى أعيادهم وانتصاراتهم .

سابعاً : إذا شددت هذه العناصر الستة برباط يجمعها ، لما عز عليك التلاحم بينها ، مع أن القصيدة جاهلية ، الشأن فيها أن تقوم على البيت المفرد ، الذى لا علاقة له بالغرض ولا يضر تقديمه أو تأخيره ، لكن النابغة لم يكن كذلك فى هذه البائية ، بل تلاحمت عناصرها ، وترابطت فى وحدة موضوعية ، تدور معانيها حول الغرض منها وهو المدح من أول بيت كما رأيت ، ولا يؤخذ عليه قوله :

تورثن من أزمان يوم حليمة إلى اليوم قد جربن كل التجارب

بأن يكون فى ختام صورة المعركة : أى بعد قوله « بضرب يزيل الهام . . . » ، بل يظل فى موقعه بعد الحديث عن السيوف التى توارثوها عن آبائهم فى يوم « حليمة » ، فهى تدل على صلابتها ، وعلى أنهم لم ينهزموا بعدها ، ولم يسلبها الأعداء ، كما أنها تثلمت من كثرة الضرب ، وعلى هذا جاء البيت فى موقعه متلاحما مع ما قبله وما بعده .

ثامناً : والتلاحم بين عناصر المدح ومعانيه تقتضى من الشاعر أن يتوجها بالحكمة ، فتكون كالخاتم الذى يطوى بعده الكتاب أو الرسالة الموجهة إلى الملوك فقال :

ولا يحسبون الخير لا شر بعده ولا يحسبون الشر ضربة لازب

كما أن البيت الأخير بعد الحكمة جاء فى موقعه أيضاً ، لأنه جاء كالعنوان الذى يدون على الكتاب أو الرسالة حتى لا يضل طريقه ، فهو موجه إلى الغساسنة لا المناذرة يقول :

حبوت بها غسان إذ كنت لاحقا بقومى وإذ أعيت على مذاهبى

وإن كنت آخذ عليه التكرار فى المعانى مثل « من الضاريات

والدوارب بمعنى واحد وكذلك قوله : « فما يرجون غير العواقب » كان عليه أن يغمض عنه عينيه فقد جاء به في موقعه من الحكمة الخاتمة بعد اكتملت القصيدة بعناصرها .

ولا أظن داعيا للتكرار هنا غير ضرورة القافية في « الدوارب » «العواقب » والضرورة لا يلجأ إليها الشاعر ما دام حقله اللغوى خصيب ، يتجاوب مع الموهبة الفذة لأمثال النابغة الذبيانى ومثل ذلك قوله : «وصيداء الذى عند حارب » ، فلامعنى لحارب » بعد صيداء فهى موضع قريب منها ، وصيداء أشهر منها ، لأنها مدينة على الساحل ، فليست هنا فى موقعها ، اللهم إلا ضرورة القافية والوزن معا .

---

# التصوير الشعرى

## وحى الألفاظ والأساليب :

لم يخرج النابغة عن منهج القصيدة فى الشعر الجاهلى للألفاظ والأساليب ، بل يعد الشاعر من مدرسة التجويد والصقل فى اختيار الألفاظ وبناء التراكيب ، يطيل التأمل ويعاود النظر فيها ، فتكون الكلمة فى موقعها ثرية بالايحاءات المتنوعة فى معناها وموسيقاها وعلاقتها بأخواتها أو عن طريق التشبيهات المثيرة ، والاستعارات الرائعة .

وألفاظ القصيدة جزلة قوية تسيل رقة وعذوبة ، والأساليب محكمة دقيقة فى تركيب متناسق مصقول كالنحات الذى يصقل تمثاله بتراثه اللغوى وحاسته الفنية ، ونظراته النقدية الثاقبة ، فهو جلس القبة التى تضرب فى سوق عكاظ للمباراة الشعرية بين الفحول ، فلايضع الكلمة إلا إذا فاضت عن معان كثيرة ، وأوحت بمشاعر رقيقة وأحاسيس عميقة .

تأمل كلمة « كليني » وما يوحى به فعل الأمر من الرجاء والاستغاثة ، ليتلاءم مع وحى النداء فى قوله « يا أميمة » ، فليس على حقيقته بل المراد من النداء أيضاً الاستغاثة والرجاء ، فهو يرجوها مع شدة ضعفها ، وهى أعجز منه عن ردّ الهموم ، ولذلك جاء بها مصغرة ، فهى تصغير « أم » ، ثم ماتوحى به صيغة « أقاسيه » من الصراع العنيف بينه وبين الهم والليل ، والمنافسة بين الرغبة فى الغساسنة والرهبة من المناذرة والوشاة الحاقدين .

وما أروع التلاؤم بين وحى الكلمات فى معانيها وبين وحيها فى أصواتها وموسيقاها ، فالهم ثقيل متباطىء يتناسب مع التشديد فى « الهم »

وتضعيف الميم فى « أميمة » ، وحروف اللين فى ( كليني — يا — ناصب — أقاسيه — بطىء الكواكب ) .

وما أروع الموسيقى فى قوله : « تقاعس حتى قلت ليس بمنقض » فهو تصوير دقيق بإيقاعه وموسيقاه لثقل الهم وتضاعف الحزن ، فصياغة « تقاعس » على تفاعل ، وثقل حروف القاف مع المد ، والعين ، ثم الشدة فى « حتى » ، وتكرار القاف فى « قلت — بمنقض » يوحى كله بمعناه وأصوات حروفه وموسيقاه بعنف وشدة الحزن .

وهو ما يوحى قوله فى البيت الثالث : « عازب — تضاعف — جانب » مع التنكير المنون فى « صدر » فهو يوحى بأن الهم أمضه حتى انتزعه من صدره ، فأصبح صدرا مجهولا أى صدر يتحسر عليه ويتألم به لغربته عنه فهو ليس بصدره ؟

وسر تقديم الخبر على المبتدأ فى قوله : « على لعمرو نعمة بعد نعمة » يوحى بالإستعطاف ورجاء الصحبة والمعاشرة ، ثم التنكير فى نعمة مرتين مع التنوين يفيد التكثير والتعظيم معا ، وكذلك التنكير فى قوله : « يمينا — بصاحب » فهو للتعظيم ، وما يفيده القصر فى قوله : « ولا على إلا حسن ظن بصاحب » فهو لا يعرف إلا حسن الظن وطيب الأعمال ، ولا يخطر ببال أحد سوء الظن وذميم الفعال .

ويؤخذ على الشاعر تباعد الحروف فى نطق الكلمات وثقلها على اللسان والسمع فى قوله :

| | |
|---|---|
| لئن كان للقبرين قبر بجلق | وقبر بصيداء الذى عند حارب |
| وللحارث الجفنى سيد قومه | ليلتمس بالجيش دار المحارب |

فما أبعد مخرج حرف القاف مع الباء والجيم والراء والقاف ؟

ثم يؤخذ عليه فى البيتين أسلوب التعليق فيهما فهو جوده على عراقة نسبه فيقول : لوكان الممدوح عريق النسب فلابد أن يكون كريماً وهذا أسلوب لا يتناسب مع مقام المدح ، الذى يقوم على التهويل بالفضائل والإخبار بها لإلزام الخصم وإفحامه .

وتأمل موقع « إذا ما غزو » فهى توحى بالتحقيق وصدق الوقوع ، كما توحى أيضاً بأنهم قوم شجعان فى حروب لا تنقطع وهم فى رباط دائم : لأنها تدل على التحقيق لا الشك وعلى ما يستقبل من الزمان ، ثم ما توحى به « ما » الزائدة بزيادتها وبإيقاعها الصوتى الناتج عن حرف اللين الممتد من الزيادة فى معنى التحقيق والاستقبال ، فزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى . وما يدل عليه التنكير فى « عصائب » من التكثير ، وتضاعف بتكرار اللفظ المنكر فى القافية .

وما يوحى به قوله : « يصاحبنهم » من طول الملازمة ودوام المعاشرة والمحبة ، فهم جميعاً فى صحبة ، فالطير تهوى الغساسنة لما يحدث بعد معاركهم من الشبع والطعام وهم يتفاءلون بالطير لأنها بشارة الخير والظفر بالأعداء كأنهم يشتركون معهم فى القتال ، وتغير على العدو كما يغيرون هم ، لذلك قال : « حتى يغرن مغارهم » .

ثم تلك الصورة الأدبية فى البيتين :

تراهن خلف القوم خزراً عيونها . . . . . . .

جوانح قد أيقين أن قبيلة . . . . . . .

فهى تنقلك إلى سماء المعركة لتبصر عن عيان حركة الطير وتربصها فى

يقظة وحذر ، ثم انقضاضها على الفريسة بقوة بعد الانتصار ، وهذه الصورة المحسة تزيد المعنى وضوحاً فتتمكن فى النفس عن تجربة محسوسة واقعة ، وهى أيضاً تقوم مقام الحجة والاستدلال على تثبيت المعانى المجردة وسبق ما تفيده إذا مع ما الزائدة .

تقديم الخبر فى قوله « لهن عليهن عادة » يوحى باهتمام الطير بجيش الممدوح وما تعودت عليه من كرمه حتى مع الطير ، فهو لهن لا لغيرهن ، وما يوحى به البناء للمجهول فى « عرض » من ضخامة الجيش وكثرة السيوف ، فعددهم مجهول غير محدد وطرائقهم متنوعة غير معروفة وأنهم وبنى عمهم واحد لا تمايز بينهم .

وماتوحى به « عارفات عوانس » من دربة الخيل وحنكتها ورياضتها فى القتال ، حتى أصبحت لا تفر من الطعان ولا تخشاه .

وتقديم الخبر فى « بهن كلوم » يدل على أنها ليست جياداً مرفهة للزينة والعلف ، لكنها هى وحدها معدة للقتال مهيأة للطعان ، فالكلوم مقصور عليها ، أما غيرها من الخيل فلا حظ له بل مرفه للزينه والعلف .

وما أروع بناء الفعل للمجهول فى « إذا استنزلوا » ؟ يوحى بأن عدوهم لايقهرهم ، بل ما يدعوهم إلى النزال إنما هو خطتهم الحربية وما يقتضيه القتال ، كما توحى بمهارتهم فى الحروب فلا تتخذ طريقة واحدة ، فلكل حال لبوسها ، وكلمة « عنهن » تفيد بأن الخيل محجوزة بعيدة عنهم ومصانة لم تسقط فى المعركة ولم يستولى عليها العدو وهذا يدل أيضاً على حنكتهم العسكرية .

وموسيقى « أرقلوا إرقال » توحى بسرعة الحركة وتتابع الأقدام فى

خفة وسرعة خاطفة ، وتزداد السرعة أكثر إذا كانت الإبل لم يمسسها حبل ولا رضاع .

وما أروع المشاركة وتنازع المنية بين الجميع فى قوله « يتساقون » مما توحى به صيغة المفاعلة من الجانبين . وأنها مستمرة لا تنقطع ساعة القتال وهو ماتوحى به صيغة المضارعة ، وكذلك مايوحى به الجمع بالواو من مشاركة الجميع .

وما يوحى به تقديم الخبر على المبتدأ فى قولهم : « بأيديهم بيض » بأن السيوف الماضية ذات المعدن النفيس الأبيض للغساسنة وحدهم ، ولاتوجد عند غيرهم وهو ما يفيده القصر بتقديم الخبر .

صور الخيال :

الخيال عند النابغة لم يخرج عن الخيال فى الشعر الجاهلى يستمد مصادره من بيئه الشاعر ، ينطلق من القيم العربية فى المدح والثناء ، أو تصوير مظاهر الحياة من حوله من خلال خواطره ومشاعره ، كل ذلك فى صور أدبية تتولد من واقع الفطرة والقرب لا الغموض ولا التعقيد ، ومع أن الشاعر من مدرسة التهذيب والصقل لا نجد فى قصيدته تراكباً فى الخيال ، ولا اكتظاظاً فى صورة مما يخفى المعنى أو يحتاج إلى تأمل وطول نظر .

تجد فى قوله : « وليل أقاسيه بطىء الكواكب » كنايه عن طول الايل ، وكذلك فى البيت الثانى كناية عن طول الليل ، أما الكناية فى البيت الثالث فعن كثرة الهم ، وكذلك الكنايات فى رقاق النعال » ، « طيب حجزاتهم » ، أكسية الاضريج فوق المشاجب » ، « خالصة الأردان » ، « عرض الخطى فوق الكوائب » .

واستعارة فى « تقاعس الليل » وفى « يرعى النجوم » وفى « أراح الليل » وفى « تضاعف فيه الحزن » وفى « يرجون غير العواقب » وفى « ليست بذات عقارب » وفى « بأسهم غير كاذب » ، وفى «تهتدى بعصائب» وفى « يطير فضاضاً كل قونس » وفى « يتساقون المنية بينهم » وفى « يصاحبنهم حتى يغرن » وفى « قد أيقن » وفى « قد عرفنها » وفى « عارفات للطعان عوابس » وفى « يتبعها فراش الحواجب » وفى « تقد السلوقى » وفى « وتوقد بالصفاح نار الحباحب » .

ومن التشبيهات « جلوس الشيوخ فى ثياب المرانب » ، أرقلوا إلى الموت إرقال الجمال » ، « كإيزاغ المخاض الضوارب » ، وفيها من ألوان البديع ما جاء عفو الخاطر منساقاً مع المعنى . مثل : « دام وجالب » ، « والأحلام غير عوازب » ، « الخير والشر » ، « إذ كنت لاحقاً — وإذ أعيت على مذاهبى » ، والمدح بما يشبه الذم مثل قوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

وإذا كانت هذه هى صور البيان ، التى يعد النابغة من واضعيها فى أدبنا العربى وروادها فى علم البلاغة العربية إلا أن الشاعر تجاوز البيان فى التصوير الأدبى إلى التصوير بوسائل أخرى كما ظهر ذلك فى الحديث عن وحى الكلمات والأساليب ، فكل كلمة وكل عبارة تعطى لوحة أدبية تختزن كثيراً من الخواطر والمشاعر والعواطف .

وكذلك الصورة الحسية من واقع الحياة وهى صورة الطير حين حلقت بنا نحن فى ساحة المعركة مبهورين بهذه الصورة الواقعية ، فالطير تتربص بالعدو فى صبر وحنكة كالشيوخ فى ثياب المرانب وهى واثقة من

النصر والشبع معاً .. إنها صورة حسية واقعة لم تتفجر من ينابيع الخيال، لكن العقل أحكمها فجاءت أروع من الخيال . وعلى هذا قد يعرض العقل الحقائق فى صوره أدبية أروع من عرض الخيال لها إنها عبقرية الشاعر لا الخيال الشعرى .

وتلك هى الصورة الكلية التى تجمع فى جوانبها صوراً جزئية خيالية أخرى تلاحمت فى تكوينها متكاملة فجاءت لوحة فنية رائعة .

العاطفة فى القصيدة :

الشعر الصادق ينبع من عاطفة قوية صادقة ، تسمو بالقصيدة والشاعر فى سماء الشعر الجيد وساحة الشعراء الفحول ، وهذه العاطفة تأخذ صوراً مختلفة حسب المعانى والأغراض فعاطفة الغزل تختلف عن عاطفة الرثاء ، وعاطفة الحماسة تختلف عن عاطفة المدح وهكذا ،

وكذلك لابد للعاطفة من الصدق الفنى ، فيكون الشاعر صادقاً مع نفسه ومشاعره فى معانيه وألفاظه ، فتتلاءم المعانى والألفاظ والصور والغرض والموسيقى مع عاطفة الشاعر ومشاعره ، وإذا لم يتحقق الصدق الفنى تهبط القصيدة إلى الرداءة ولا تعد من الشعر الجيد .

وعاطفة النابغة هنا هى عاطفة المدح والثناء على ملوك الغساسنة ، وهما يقتضيان عاطفة الحب والإعجاب ، التى تتلاءم مع الألفاظ الفخمة الجزلة ، والمعانى الشريفة السامية والأسلوب القوى المحكم والصورة المعجبة المثيرة .

فالمعانى فى القصيدة تتلاءم مع الإعجاب وهى : الفرافة والمجد

وعلو النسب ، والشجاعة والإقدام والانتصار . والملك والكرم ، والعفة والعقل والحكمة .

وكذلك الألفاظ والأساليب قوية فخمة ورصينة محكمة النسج مثل قوله :

تقد السلوقى المضاعف نسجه وتوقد بالصفاح نار الحباحب

وكذلك الصورة الأدبية المثيرة الرائعة مثل : « يرعى النجوم بآيب » ، « فهم يتساقون المنية بينهم » ، « رقاق النعال حجزاتهم » وغيرها .

ومطلع القصيدة يوهم أنه يتنافى مع عاطفة الإعجاب وليس كذلك فهى تتصل بالإعجاب أيضاً ، لأن النابغة أثقلته الهموم ، وتداعت عليه الأحزان بالليل ، ولا يصرفها عنه إلا الرحيل إلى ملك يبدد الخوف ، ويبعث الأمن ، ويحى فيه الأمل ، ويجد فى ساحته العيش الكريم فى ظل عمرو الغسانى .

فهناك علاقة وثيقة بين طول الليل وبين صباحه الذى سيرحل فيه إلى الممدوح ، والهم الذى ألم به هو الدافع الحقيقى والقوى إلى المدح والثناء ، والذى يقتضى عاطفة الإعجاب والإثارة .

## موازنة ونقد :

يقول النابغة :

إذا ما غزو بالجيش حلق فوق رؤوسهم . . . . .

إلى قوله :

لهن عليهم عادة قد عرفنها . . . . . . .

ويقول أبو نواس :

تتأيّى الطيرُ غدْوته ثقةً بالشبع من جزَره

الصورتان للشاعرين تصور معنيين أحدهما صريحا والآخر بالوحى والتلميح ، والمعنيان هما : الظفر بالعدو وشبع الطير من لحوم الأعداء .

واختلف الشاعران فى عرضهما ، فصور النابغة علم الطير بنصر الممدوح فى معركته ، فأسرعت تحلق فى سماء المعركة تنتظر ساعة النصر ، وترك الثانى وهو شبع الطير من لحوم الأعداء ليأتى عن طريق الوحى والإشارة .

لكن صورة أبى نواس نقلت إلينا المعنى الثانى نقلا صريحا ، وهو شبع الطير ، وكنى عن المعنى الأول وهو علم الطير بالنصر وثقته بالظفر .

وصورة النابغة نبعت من موهبة شعرية تميل إلى الفطرة وقرب المعانى ونقل الواقع كما هو من غير عمق ولا تأمل ولا ثراء فكرى ، لذلك جاءت فى خمسة أبيات مع تدنى المعنى وقربه .

بينما صورة أبى نواس نبعت من موهبة شعرية عميقة الفكر ، ثرية المعانى ، لكنها فى عمق وإيجاز وتركيز ، تعينها قريحة الحياة العباسية العامرة بالثقافات والحضارة ، لذلك جاءت الصورة فى بيت واحد .

صورة النابغة تعد لوحة فنية متناسقة الألوان تضم عناصرها من اللون والحركة والسكون والطعم والرائحة ، فلم تترك حركة فى المعركة ولا سكونا فى جلوس الطير وتربصه ، كما تجد ألوان الدماء القائمة وفرحة النصر الزاهية ، وكما تشم رائحة الدم الزاكية تفوح منها رائحة المعركة ، وتتذوق طعم الانتصار .

أما صورة أبى نواس فهى عميقة تركزت فيها الحركة فى كلمة « تتأبى وغدوته » والسكون فى « ثقة » والطعم والرائحة فى « جزره » .

وأجزاء الصورة عند النابغة تنقل مواقع الطير فى المعركة نقلا صادقا ودقيقا ، فقد اتخذت الطير موقعها فرقا وكتائب فهى عصائب طير تهتدى بعصائب مثل فرق الجيش وكتائبه وهذا أدق فى التصوير من كلمة « طير » عند أبى نواس التى جعلها مكدسة فى مكان واحد .

وجماعات الطير عند النابغة يصاحبن الجيش ويغرن معهم وقت الإغارة وهن جوانح ، ويجلسن خزرا عيونها كجلوس الشيوخ ، وهى تشتمل على حركات متنوعة وسكون ، بينما كلمة « تتأبى » ، « غدوته » مع إيجازهما تدلان على الحركة فى الصورة فقط دون السكون الذى يلزم للطير حين ترقبه للنصر .

وقول النابغة :

لهن عليهم عادة قد عرفنها إذا عرض الخطى فوق الكواثب

يوحى بثقة الطير من الشبع ، وهذا أنسب فى مجال التصوير الأدبى ، وأميل إلى طبيعة الشعر من التعبير بكلمة « ثقة » عند أبى نواس فهى عبارة منطقية تقريرية تنص صراحة على ثقة الطير من الشبع ، وهو ما لا يتفق وطبيعة الشعر التى تذهب بالقارىء مع الوحى والتأمل لا الحكم والتقرير .

وكلمة « أول غالب » عند النابغة أضعفت من جانب المدح ، فهى تدخل على الممدوح احتمالا لا يتناسب مع مقام المدح ، فقد ينتصر أول مرة وينهزم ثانية . ولا يرد هذا الاحتمال فى صورة أبى نواس .

وصورة النابغة صورة شعرية تتناسب مع طبيعة الشعر بتنوع

أجزائها وإكتمال عناصرها ، بينما صورة أبى نواس أقرب إلى التوقيعات والتقارير الموجزة السريعة فى العصر العباسى .

## شخصية الشاعر من القصيدة :

الشعر الصادق هو الذى يعبر عن شخصية الشاعر ، وتصور ملامحه ، ومن أهم هذه الملامح .

أولا : نقلت إلينا القصيدة شخصية النابغة ذلك الشيخ الوقور فلا يستهل قصيدته بالغزل الخليع وكلماته الماجنة ، ولم يتعرض له فى المطالع إلا بكلمة « أميمة » التى يدعوها أن تدعه وأحزانه ، فهى ليست هموم صبابة ، وإنما هى هموم ليل يستحثه ليلتقى بأمجاد الممدوح وينعم بطيب العيش .

ثانياً : عاش النابغة مترفع النفس عزيز الجانب لذلك لم يخضع للوشاة ، ولم يذل للنعمان ، بل تركهم جميعا ، لا لينطوى على نفسه أو يرجع إلى قسوة العيش مع قومه ، لكنه ذهب إلى ملوك لهم أمجادهم وانتصاراتهم على المناذرة .

ثالثاً : عاش النابغة فى كنف الملوك ، وفى ظـــلال النعيم والرفه والحضارة لا البداوة ، مما كان له أثره على معانيه وألفاظه المتحضرة مثل قوله : « محلتهم ذات الإله — ودينهم قويم — رقاق النعال — طيب حجزاتهم — يحيون بالريحان يوم السباسب — تحييهم بيض الولائد — أكسية الاضريج فوق المشاجب — يصونون أجسادا قديما نعيمها — بخالصة الأردان خضر المناكب » كلها ألفاظ عذبة رقيقة ، وأساليب سهلة واضحة المعانى تتلاءم مع حياة الملوك فى قصورهم ومجالسهم ، كما تتناسب مع ثرائهم وحضارتهم .

رابعاً : لم يكن النابغة شاعرا فحسب ، بل كان ناقدا متذوقا للشعر وصياغته ، فتراه ينتقى الكلمة ويهذبها ، ويضعها فى موطنها من الصورة الشعرية ، ويقوم أيضاً بتهذيب العبارة وصقلها تأمل قوله :

إذا استنزلوا عنهن للطعن أرقلوا إلى الموت إرقال الجمال المصاعب

وقوله :

لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم من الجود والأحلام غير عوازب

والنابغة يعد من شعراء التجويد والتحبير الذين اهتموا بالبيان وبلاغة التصوير الأدبى فهو من مدرسة زهير بن أبى سلمى تهتم بالاستعارات والكنايات وألوان البديع التى تأتى عفو الخاطر .

خامساً : تتميز شخصيته فى القصيدة بأنها تعبر عن ثقافة صاحبها ، فهو يعرف الأيام التى وقعت بين الغساسنة والمناذرة ، وأن الغساسنة قوم لهم دين ، وهو النصرانية وعلى أراضى مقدسة طاهرة ، فقد خالط هؤلاء عن كثب فكانت له ثقافة متحضرة تختلف عن بقية شعراء عصره مثل قوله من قصيدة أخرى :

ألا سليمان إذ قال الإله له قم فى البرية فاحددها عن الفند

سادساً : والقصيدة تصور وقار الشيخ وحكمته ، فهو ينطق بها سهلة عذبة تسير بين الناس مثل قوله : « والأحلام غير عوازب » وقوله : « وإذ أعيت على مذاهبى » وقوله :

ولا يحسبون الخير لا شر بعده ولا يحسبون الشر ضربة لازب

# دريد بن الصمة

دُرَيد بن الصِّمة واسم الصمة معاوية الأصغر بن الحارث بن معاوية الأكبر بن بكر بن علقة بن خزاعة بن غَزِيَّة بن جُشَم بن معاوية بن بكر ابن هوازن(١) ويكنى بأبي ذُفافة وبأبي قُرَّة(٢).

وهو شاعر فحل من شعراء الجاهلية أدرك الإسلام ولم يسلم، وخرج مع قومه فى يوم حنين مظاهراً للمشركين ولا فضل فيه للحرب، وإنما أخرجوه تيمنا به وليقتبسوا من رأيه، فمنعهم مالك بن عوف من قبول مشورته، وخالفه لئلا يكون له ذكر، فقتل دريد يومئذ على شركه.

وكان سيد بنى جشم وفارسهم وقائدهم وكان مظفراً ميمون النقيبة، غزا نحو مائة غزاة ما أخفق فى واحدة منها ذكر ذلك أبو عبيدة.

وجعله محمد بن سلام أول شعراء الفرسان، وقد كان أطول الفرسان الشعراء غزوا، وأبعدهم أثراً، وأكثرهم ظفراً، وأيمنهم نقيبة عند العرب، وأشعرهم دريد بن الصمة.

وأمه ريحانة بنت معديكرب الزبيدى أخت عمرو بن معديكرب وله أخوة وهم عبد الله الذى قتله غطفان وعبد يغوث قتله بنو مرة وقيس قتله بنو أبى بكر بن كلاب، وخالد قتله بنو الحارث بن كعب وله ابن يقال له

---

(١) الأغانى : ٣٤٦٧/١٠ – تحقيق إبراهيم الابيارى دار الشعب.

(٢) الأغانى : ٣٤٩٧/١٠ .

تمامه وكان شاعراً رمى أبا عامر الأشعرى بسهم فأصاب ركبته وارتجز فقال :

إن تسألوا عنى فإنى سلمه  ابن سمادير لمن توسمه(١)
أضرب بالسيف رءوس المسلمة

وله بنت وكانت شاعرة ، قال أبو عبيدة : وكان الصمة أبو دريد شاعراً وهو الذى يقول فى حرب الفجار التى كانت بينهم وبين قريش :

لاقت قريش غـداة العقيـ ـق أمراً لها وجدته وبيلا
وجئنا إليهم كموج الآتى يعلو النجاد ويملأ المسيلا
وأعددت للحرب خيفانة ورمحاً طويلا وسيفاً صقيلا(٢)
ومحكمة من دوع القيو ن تسمع للسيف فيها صليلا

وكان أخوه مالك بن الصمة شاعراً وهو القائل يرثى أخاه خالداً :

أبنى غزية إن شلوا ماجدا وسط البيوت السود مدفع كركر
لا تسقنى بيديك إن لم ألتمس بالخيل بين هبولة فالقرقر(٣)

ذكر ابن الأعرابى أن دريد بن الصمة مر بالخنساء بنت عمرو بن الشريد فأعجبته وأنشأ يقول :

حيوا تماضر واربعوا صحبتى وقفوا فإن وقوفكم حسبى
أخناسُ قد هام الفؤاد بكم وأصابه تبل من الحب

---

(١) سمادير : أمه وزوج دريد .
(٢) خيفانه : الفرس .
(٣) الشلو : الجسد ، كركر : علم على عدة مواضع ، هبولة والقرقر : موضعان .

فلما أصبح خطبها من أبيها ، فعرض عليها أمره وقال لها : يا خنساء : أتاك فارس هوازن وسيد بنى جُشمَ دريد بن الصمة يخطبك وهو مَنْ تعلمين ، ودريد يسمع قولها ، فقالت : يا أبت أتُرانى تاركة بنى عمى مثل عوالى الرماح وناكحة شيخ بنى جشم هامة اليوم أو غد .

فانصرف فبعثت خلفه، وقالت لها : انظرى دريداً إذا بال فإن وجدت بوله قد خرق الأرض ففيه بقية ، وإن وجدته قد ساح على وجهها فلا فضل فيه ، فأتبعته وليدتُها ثم عادت إليهـا فقالت : وجدت بوله قد ساح على وجه الأرض فأمسكت . وعاود دريد أباها فعاودها فقالت هذه المقالة المذكورة ثم أنشأت تقول :

| | |
|---|---|
| أتخطبنى هُبلْت على دريد | وقد اطردت سيد آل بدر |
| معاذ الله ينكحنى حبركى | يقال أبوه من جشم بن بكر |
| ولو أمسيت فى جشم هديا | لقد أمسيت فى دنس وفقر |

فغضب دريد من قولها وقال يهجوها :

| | |
|---|---|
| وقاك الله يابنـــة آل عمرو | من الفتيان أمثالى ونفسى |
| فلا تلدى ولا ينكحك مثلى | إذا ما ليـلة طرقت بنحس |
| لقـــد علم المراضع فى جمادى | إذا استعجلن عن حزْ بنهْس |
| بأنى لا أبيت بغـــير لحم | وأبدأ بالأرامل حين أمسى |
| وأنى لا ينال الحى ضيفى | ولا جارى يبيت خبيث نفس |

إلى قوله :

| | |
|---|---|
| وتزعم أننى شيخ كبير | وهل خبّرتها أنى ابن أمس |
| تريد شرنْبثَ القدمين شثْنا | يبادر بالجدائر كل كِرْسى |

وما قصرت يدى عن عُظم أمر   أُهمّ به ولا سهمى بنكس
وما أنا بالمزجى حين يسمو   عظيم فى الأمور ولا بوَهْس

قال : فقيل للخنساء : ألا تجيبنه ؟ فقالت : لا أجمع عليه أن أردّه وأهجوه(١) .

وأخبر أبو عبيدة عن يونس أنه كان يقول : أفضل بيت قالته العرب فى الصبر على النوائب قول دريد بن الصمة :

قليل التشكى للمصيبات حافظ   من اليوم أعقاب الأحاديث فى غد

وقال أبو عبيدة سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول : أحسن شعر قيل فى الصبر على النوائب قول دريد بن الصمة حيث يقول(٢) :

تقول ألا تبكى أخاك وقد أرى   مكان البكا لكن بنيت على الصبر
لمقتل عبد الله والهالك الذى   على الشرف الأعلى قتيل أبى بكر
وعبد يغوث أو خليلى خالد   وعز مصاباً حثو قبر على قبر
أبى القتل إلا آل صِمة إنهم   أبوا غيره والقدر يجرى إلى القدر
فإما ترينا ما تزال دماؤنا   لدى واتر يشقى بها آخر الدهر
فإنا للحم السيف غير نكيرة   ونلحَمه ُ حيناً وليس بذى نكر
يغار علينا واترين فيشتفى   بنا إن أُصبنا أو نغير على وِتر
بذاك قسمنا الدهر شطرين قسمة   فما ينقضى إلا ونحن على شطر

وجاء فى قصة مقتله لما فتح رسول الله ﷺ مكة أقام بها خمس عشرة ليلة ، ولما سمعت به هوازن جمعها مالك بن عوف النصرى واجتمعت له

---

(١) الأغانى ١٠/٨٦ — ٣٤٨٩ .
(٢) فى رثاء أخيه عبد الله .

القبائل وفيهم بنى جشم ومعهم دريد شيخ كبير فإنه ليس فيـــه شىء إلا التيمن برأيه ومعرفته بالحرب فقال : أين مالك فدعى له به فقال : يا مالك إنك قد أصبحت رئيس قومك وإن هذا اليوم كائن له ما بعده من الأيام مالى أسمع رغاء البعير ونهيق الحمير وبكاء الصبيان وثغاء الشاء . قال : سقت مع الناس نساءهم وأبناءهم وأموالهم . قال : ولم قال : أردت أن أجعل مع كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم قال : فأنقص به ووبخه ولامه ، ثم قال : راعى ضأن والله « أى أحمق » وهل يرد المنهزم شىء . . . قال : لا والله ما أفعل ذلك أبداً ! إنك قد خرفت وخرف رأيك وعلمك والله لتطيعننى يا معشر هوازن أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من وراء ظهرى ، فنفسى على دريد أن يكون له فى ذلك اليوم ذكر ورأى : فقالوا له أطعناك وخالفنا دريداً فقال دريد هذا يوم لم أشهده ولم أغب عنه ثم قال :

يا ليتنى فيها جـــذع    أخب فيها وأضـــع
أقود وطفـــاء الزمع    كأنها شاة صـــدع

فلما لقيهم رسول الله ﷺ انهزم المشركون فأتوا الطائف ومعهم مالك بن عوف . . فأدرك ربيعة بن رفيع السُّلَمى أحد بنى يربوع دريد بن الصمة فأخذ بخطام جمله وهو يظن أنه امرأة . . فأناخ به فإذا هو رجل شيخ كبير لم يعرفه الغلام فقال له دريد : ماذا تريد ؟ قال : أقتلك ، قال : ومن أنت قال : أنا ربيعة بن رفيع السلمى فأنشأ دريد يقول :

ويح ابن أكثمةَ ماذا يريد    من المرعش الذاهب الأدرد
فأقسم لو أن بى قوة    لولت فرائصـــه تُرعد

ويا لهف نفسى ألا تكون معى قوة الشارخ الأمرد

ثم ضربه السلمى بسيفه فلم يغن شيئاً . فقال له : بئس ما سلحتك أمك ! خذ سيفى هذا من مؤخر رحلى فى القراب فاضرب به وارفع عن العظام واخفض عن الدماغ ، فإنى كذلك كنت أفعل بالرجال ثم إذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة ، فرب يوم قد منعت فيه نساءك ! . . . فلما رجع ربيعة إلى أمه أخبرها بقتله إياه ، فقالت له : لقد أعتق قتيلك ثلاثاً من أمهاتك(١) .

قال دريد بن الصمة يرثى أخاه عبد الله :

أرثَّ جديدُ الحبل من أم معبدِ بعاقبة وأخلفت كل مَوْعدِ
وبانت ولم أحمد إليك جوارها ولم ترج منا ردة اليوم أو غد
أعاذلتى كل امرىء وابن أمه متاع كزاد الراكب المتزود
أعاذل إن الرزء أمثال خالد ولا رزء مما أهلك المرء عن يد
نصحت لعارض وأصحاب عارض
ورَهط بنى السوداء والقوم شُهَّدى
فقلت لهم ظُنوا بألفْ مدّجج سراتهمُ فى الفارسىّ المسرد
أمرتهمُ أمرى بمنعرج اللّوى فلم تستبينوا الرشد إلا ضحى الغد
فلما عصونى كنت منهم وقد أرى غوايتهم وأننى غير مهتدى
وهل أنا إلا من غزّية إن غوت غويت ، وإن ترشد غزية أرشد
دعانى أخى والخيل بينى وبينه فلما دعانى لم يجدنى بقعدد
تنادوا فقالوا أرْدَتْ الخيل فارساً فقلت أعبد الله ذلكم الردى

---

(١) الأغانى ١٠/٣٤٩٥/٣٤٩٦ .

فإن يك عبد الله خلى مكانه    فلم يك وقافاً ولا طائش اليد
ولا برماً إذا الرياح تناوحت    برطب العضاة والهشيم المعضد
نظرت إليـــه والرماح تنوشه    كوقع الصياصى فى النسيج الممدد
فطاعنت عنه الخيل حتى تبددت    وحتى علانى أشقر اللون مزبد
فما رمت حتى خرقتنى رماحهم    وغودرت أكبو فى القنا المتقصد
قتال امرىء واسى أخاه بنفسه    وأيقن أن المرء غير مخلد
صبور على وقـــع المصائب حافظ
من اليوم أعقاب الأحاديث فى غد (١)

---

(١) الرزء : المصيبة والكارثة — خالد وعارض وعبد الله قال شارح الحماسة أنها أسماء لأخ واحد وله ثلاث كنى أبو أوفى وأبو ذفافه وأبو فرعان — وذكر الأصفهانى أن خالد إسما غير عبد الله وهما أخواه معا — رهط بنى السوداء : هم أصحاب أخيه عبد الله — القوم شهدى : شهودى ـ ظنوا : أيقنوا والمعنى ما ظنكم بألفين من الأعداء — المدجج : التام السلاح والمدجج يستتر نفسه بالسلاح — السراة : الأشراف — الفارسى المسرد : الدرع القوى المتتابع الحلقات — غزية : قبيلة من هوازن وإليها ينتسب الشاعر — القعدد : الجبان اللئيم الذى يقعد عن المكارم — البرم : الضجر — تناوحت الرياح هبت من جهات مختلفة وقت الجدب — العضاة : شجر عظيم له شوك الهشيم : النبات اليابس المتكرر — المعضد : المتقطع — تنوشه : تتناوبه الصياصى : جمع صيصه وهى الشوكة التى يسوى بها الحائك السداة واللحمة مزبد : فيه إقواء ورواية الحماسة لا إقواء فيها وهى :
فطاعنت عنه الخيل حتى تنفست    وحتى علانى حالك اللون أسود
المتقصد : المتكسر . الأغانى : ١٠/٣٤٧١ — ٣٤٧٣ .

معانى الأبيات :

يخاطب أم معبد فى مطلع القصيدة على عادة الشعراء فى عصره ، لتشاركه فى مصيبته وبلواه ، بعد أن قطعت حبل الوصال ، واخلفت مواعيدها ، ولم تقدم صنيعا تحمد عليه ، فاضطر أن يبادلها الجفاء بجفاء مثله ، وانصرف عنها هو كذلك ليواجه الكارثة الكبرى ، فكل الناس يفنون كما يفنى زاد الراكب فى السفر فلا بد أن ينفذ .

ومن أشد الكوارث تلك المصيبة التى أطاحت بمثل أخيه خالد هذه هى المصيبة حقا وليست فى مال ولا نشب .

ولقد نصحت قومى ألا يغيروا على بنى غطفان ومن حالفهم من بنى عبس وبنى فزارة وأشجع ، فقد استعدوا بكثرتهم وأسلحتهم فى ألفى فارس مدجج بالسلاح ولكنهم أعرضوا وانصرفوا عن رأيه إلى القتال بمنعرج اللوى .

ومع أنهم عصونى فلم أتخلى عنهم ، بل اشتركت فى القتال ، لأن قومى إذا غزو غزوت وإن أرشدوا رشدت ، فشاركت أخى فى القتال ، ولم أتخلف أو أتثاقل .. وبعد جولات صرخ القوم بقتل عبد الله الذى أبلى بلاء حسنا حتى سقط فأخلى مكانه لغيره ، لأنه لم يكن ضعيفا ولا خرقا ، لا يضجر ساعة الشدة أو بكل ، وإذا به جندلا فى ساحة الشجعان ، فقاتل عنه ودافع فى سبيله حتى ينقذه وينجو من الهلاك ، وطاعنه العدو إلى أن تفرق القوم خوفا ورعبا .

وبعد جولات إذا بالرماح قد مزقت جسده فوقع مثخنا بجراحه ودمه وهذا ما يستطيع أن يواسى به صاحب المروءة ، فقد كان على يقين

ألا يخلد أبدا ، فإما أن يعيش عزيزا ، وإما أن يموت بطلا شجاعا .
وما أعظم الصبر والسلوى من أمثال الشاعر فالذى يصبر على المصائب ،
ويحافظ على أسراره بلا ملل أو يأس هو الرجل الشجاع الذى يرد كيد
الأعداء .

وأم معبد التى ذكرها فى شعره كما ذكره أبو عمرو الشيبانى كانت
امرأته فطلقها ، فقد رأته شديد الجزع على أخيه فعاتبته على ذلك وصغرت
شأن أخيه وسبته فطلقها وقال : هذه القصيدة . فقالت أم معبد : بئس
والله ما أثنيت علىّ يا أبا قرة ، لقد أطعمتك مأدومى ، وبثثتك مكتومى ،
وأتيتك باهلا غير ذات صرار ، وما استفرمت قبلك إلا من حيض وقال
فى ذلك أيضاً :

أعبد الله إن سبّتك عرسى تقدم بعض لحى قبل بعض
إذا عرس امرىء شتمت أخاه فليس فؤاد شانئه بحمض
معاذ الله أن يشتمن رهطى وأن يملكن إبرامى ونقضى

مناسبة القصيدة :

قال أبو عبيدة : فأما عبد الله بن الصمة كان السبب فى مقتله أنه
غزا غطفان ومعه جشم وبنو نصر أبناء معاوية فظفر بهم وساق أموالهم
فى يوم يقال له يوم اللوى ومضى بها ولما كان منهم غير بعيد قال :
انزلوا بنا ، فقال له أخوه دريد : يا أبا فرعان وكان لعبد الله ثلاث كنى ..
نشدتك الله ألا تنزل فإن غطفان ليست بغافلة عن أموالها ، فأقسم لا يريم
حتى يأخذ مرباعه وينقع نقيعه فيأكل ويطعم ويقسم البقية بين أصحابه ،
فبيناهم فى ذلك ، وقد سطعت الدواخن إذا بدخان قد ارتفع أشد من دخانهم ،

وإذا عبس وفزارة وأشجع قد أقبلت فقالوا لربيئتهم أنظر ماذا ترى . . .
فاقتتلوا فقتل رجل من بنى قارب وهم من عبس عبد الله بن الصمة ، فتنادوا
قتل أبو ذفافة ، فعطف دريد فذب عنه فلم يغن شيئاً وجرح دريد فسقط
فكفوا عنه وهم يرون أنه قتل واستنقذوا المال ونجا من هرب . . قال
دريد : فسمعت زهد ما العبسى يقول لكردم الفزارى إنى لأحسب دريداً
حيا فأنزل فأجهز عليه ، قال : قد مات . — فتظاهر بالموت حتى تولى .
وقال دريد يرثى أخاه عبد الله — . .(١) .

الغرض من القصيدة ومنهجها الفنى :

والغرض الأساسى من القصيدة هو الرثاء وليس وحده بل اشتملت على غيره كالشأن فى القصيدة الجاهلية ، فبدأها بالغزل يخاطب به أم معبد زوجته التى أنكرت عليه حزنه الشديد على أخيه عبد الله ، وتنكرت له فطلقها وقطعت حبال الوصل وذهب معها كل رجاء ، ثم انتقل إلى وصف المعركة والقتال حين نصح قومه بعدم القتال لجسارة المتحالفين مع غطفان ، ولكنهم انصرفوا عن نصحه ولم يخذلهم بل قاتل معهم فوقع أخوه عبدالله قتيلا فدافع عنه حتى أثخنته الجراح .

وأخيراً انتقل الشاعر إلى رثاء أخيه عبد الله فوصفه بالشجاعة والإقدام ، وآثر الموت فى ساحة القتال على الفرار ليظل خالداً بذكراه الكريمة ، وهذا يخفف من أحزانه وآلامه وقوة الرجال تظهر فى الصبر على المكاره والترفع عن الشكوى من المصائب .

---

(١) الأغانى : ١٠/٣٤٦٩/٣٤٧١ .

وتقوم القصيدة فى منهجها الفنى على تعدد الأغراض فيها ، فجمعت بين الغزل والوصف والرثاء ، فى رباط وثيق بينها ، فقد انصرفت عنه زوجته أم معبد لشدة حزنه على أخيه عبد الله وتهالكه عليه فأبدت استيائها منه واشتد هجرها فطلقها ثم انتقل إلى الوصف للمعركة التى قاتل فيها عبد الله حتى قتل وحوله الشاعر أخوه دريد يدافع عنه حتى أثخن الجراح جسده ، ثم انتقل إلى الغرض الأساسى من القصيدة وهو رثاء أخيه الذى قاتل معه حتى قتل .

لكن الرثاء هنا لم يستكمل عناصره وقيمه المعروفة فى عمود الشعر من الكرم والمروءة إلى آخرها وإنما اكتفى الشاعر بالشجاعة والإقدام والصبر على فراقه وعدم التشكى للآخرين .

عاطفة الشاعر فى الرثاء :

فن الرثاء صورة صادقة لأصدق العواطف الإنسانية السامية ، فهو يصور علاقة الإنسان بقضية القضاء والقدر ليكون مواطن الاختبار والتمحيص ، فيرضى بما لا يملك من أمره ، ويربى النفس على التأسى والصبر لمواجهة خطوب الحياة وتقلبات الزمن ، ويرجع إلى الله عز وجل فى كل حال « ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون » ومن أبلغ صور الرثاء فى أدب النبوة قول النبى ﷺ حين دخل على ابنه إبراهيم رضى الله عنه وهو يجود بنفسه فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان فقال له عبد الرحمن بن عوف وأنت يا رسول الله فقال : يا بن عوف إنها رحمة ثم أتبعها بأخرى فقال : « إن العين لتدمع

والقلب ليحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون » .

وفن الرثاء فى الشعر العربى من أصدق الأغراض الشعرية لأنه يصدر عن عاطفة قوية صادقة تصدر من قلب مكلوم فقد عزيزاً فارق الحياة بعد أن ملأ الدنيا بفعاله ومكرماته وقد سئل أحد الأعراب : لماذا تعدون الرثاء أصدق أشعاركم ؟ فقال : لأننا نقولها وقلوبنا محترقة . فالراثى لا يبتغى عطاء ولا ثناء كما فى فن المدح .

وعاطفة دريد بن الصمة قوية صادقة صدرت عن نفس مكلومة عاشت التجربة المريرة فى ساحة المعركة مع أخيه عبد الله وأخذ يدفع عنه حتى وقع بجواره صريعا أثخنته الجراح ، فاصطبغت الأغراض المتنوعة من غزل ووصف ورثاء بصبغة الرثاء والحزن ، فأم معبد فارقها لما أخذت عليه من عظيم الجزع وشدة الحزن ، وأخذته الصورة الحية التى عاشها داخل المعركة ليصورها ويتنفس بها عن مكبوت صدره فى الغرض الثانى وهو الوصف للقتال والجراح وهذا أدل على الرثاء من الرثاء نفسه فى القصيدة ، ثم ختم القصيدة بصورة من أشهر صور الرثاء وأقواها حتى قال يونس بن حبيب أفضل بيت قالته العرب فى الصبر على النوائب قول دريد بن الصمة :

قليل التشكى للمصيبات حافظ      من اليوم أعقاب الأحاديث فى غد

ولن تكون مواساة أصدق ولا مشاركة فى الحدث بعاطفته بل بنفسه مثل مشاركة ومواساة دريد لأخيه عبد الله فى ساحة المعركة :

نظرت إليه والرماح تنوشه      . . . . . . .

حتى بلغ القمة فى المشاركة العاطفية والوجدانية :

قتال امرىء واسى أخاه بنفسه      وأيقن أن المرء غير مخلد

## بين المعانى والتصوير الأدبى :

تفيض القصيدة عن معانى الأسى والألم على فراق أخيه ، واشتداد الحزن حتى غارق زوجته وأخذ يعاتبها على تنكرها له وقت الشدة .

وحاول الشاعر أن يمنعهم من القتال ولكنهم لم يستجيبوا له وعصوه حتى عرفوا نفاذ بصيرته فى صباح المعركة .

لكن الشاعر ذو مروءة وشجاعة فعلى الرغم من المخالفة وقف بجوار أخيه فى المعركة وقاتل معه ودافع عنه حتى أصيب بجراح عميقه .

ثم يصف أخاه بالشجاعة والإقدام فهو مسدد الضربات نافذ السهام ، شديد المراس ، لم يصرفه عن القتال كثرة الرماح التى تناوشته ، ولم تترك مكانا فى جسده .

ثم عاد ليصف قتاله بالشراسة والإقدام ، كما كان قتاله قتال من يواسى أخاه ويوقن بأن المرء مهما طالت به الأيام فهو غير باق ولا مخلد .

وأخيراً يرى أن الشدة تكون فىالصبر والتأسى لافى الحزن والانهزام أمام أحداث الحياة وشدائدها .

وهذه المعانى مألوفة فى عرف الرثاء للعصر الجاهلى من وصف الهموم والأحزان والألم ووصف المعارك التى خر فيها المرثى صريعا ، ثم تناول الشاعر بعض قيم الرثاء ولم يأت عليها كلها كما يجرى فى عرف العصر الجاهلى .

لكن الشاعر ينفرد عن شعراء عصره فى فن الرثاء فى أنه اشترك مع المرثى فى المعركة ثم أخـــذ يصور المعركة ووقائعها ، كما أنه نصح القوم بالتراجع عن القتال لعدم التكافؤ بين المتقاتلين ، وأنه طوع الغزل والوصف للغرض الأساسى وهو الرثاء مما جعل الأغراض الثلاثة متلاحمة تلاحما قويا تلاءم مع المعانى والأفكار .

ولم يكن الشاعر مسرفا فى الاهتمام بألوان البيان ووسائل البلاغة المتعارف عليها من تشبيه واستعارة وكناية ، لأنه يمتح الشعر من طبعه فهو أقرب إلى الارتجال منه إلى الروية والتنقيح والصقل والتهذيب على نمط الشعر عند زهير ، ولم يكن الشاعر من شعراء مدرسة التنقيح فى العصر الجاهلى ، وإنما انقادت إليه ألوان البيان القليلة عفو الخاطر لمرة واحدة لا يراجع نفسه فيها مرة أخرى .

ومن هذه الألوان البيانية التشبيه فى قوله : ( متاع كزاد الراكب ) وقوله : ( والرياح تنوشه كوقع الصياصى ) فهى من التشبيهات المتدنية التى شاعت فى الشعر الجاهلى ، ولم تخضع لطول نظـــر أو مراجعة أو تهذيب .

ومن ألوان الاستعارة قوله : « أرث جديد الحبل » ، « ردة اليوم » ، « الرياح تناوشت » ، « والرماح تنوشه » ، « خرقتنى رماحهم » ، « أكبو فى القنا » ، « أعقاب الأحاديث » وهى أيضاً من الاستعارات المألوفة عند شعراء عصره لا غرابة فيها ولا غموض .

وما يتميز به التصوير الأدبى فى القصيدة أنها صورة أدبية متلاحمة واحدة تصور معركة حية متحركة تجتمع فيها عناصرها التى تجعلها قطعة حية

من واقع الحياة تموج بالألوان والظلال والحركة والطعوم والروائح نتجد فيها حركة القتال والرماح والسيوف والدفاع والثبات وحركة الرياح ووقع الصياصى . وتجد أيضاً الألوان الدامية التى تنزف من الأبطال ، وقتام المعركة والحزن والألم معا . . وتشم رائحة الدم وتتذوق مرارة الأسى وعلقم الهزيمة والقتل .

شخصية الشاعر من القصيدة :

لشخصية دريد بن الصمة ملامحها التى تتميز بها من مرثيته لأخيه عبد الله منها :

أولا : عاطفة الشاعر قوية جارفة لم يسيطر عليها ويكبح جماحها حتى أهمل زوجه فتنكرت له وعاتبها فى مرارة وأسى .

ثانياً : ولعمق تجربته فى الحياة وحنكته فى الحروب نصح أخاه بعدم المواجهة فقد اجتمع مع عدوه قبائل اشتهرت بالشجاعة والإقدام لايستطيع أن يسلم منها .

ثالثاً : مروءة الشاعر وشهامته دفعته إلى المشاركة فى القتال وخوض المعركة مع أخيه ولم يتركه وحده وهو يعتقد بأن القوتين غير متكافئتين .

رابعاً : كان الشاعر شجاعا مقداما فقد طاعن الخيل حتى تبدد عن أخيه ولم يعبأ بالرماح التى خرقت جسده ، فصار يكبو فى القنا المتقصد .

خامساً : لم يواسى الشاعر أخاه بمرثيته على عادة الشعراء وإنما واساه بالمشاركة معه والدفاع عنه فى معاركه العنيفة .

سادساً : الشاعر صعب المراسى قوى الشكيمة فى الأمور الجسام يتأسى بالصبر ، ولا ينساق وراء الشكوى ويحفظ لسانه عن التردى بألفاظ الجزع وعبارات الضعف والانهزام يقول فى البيت الأخير برواية أخرى :

قليل التشكى للمصيبات حافظ
من اليوم أعقاب الأحاديث فى غد

# زهير بن أبي سلمى

## نسبه وحياته :

هو زهير بن « أبي سلمى ربيعة » بن رباح بن قرة بن الحارث بن مازن ابن ثعلبة ... وينتهى نسبه إلى إلياس بن مضر ، وأبوه « أبو سلمى ربيعة » المزنى من قبيلة مزينة ، وينتسب إلى مزينة ، وهى أم عمرو بن أد أحد أجداده وليس غطفانيا كما ادعى الشاعر مزرد بن ضرار ، فقد نقض هذه الدعوى كعب بن زهير حين يعتز بنسبه المزنى لا الغطفانى فى قوله :

هم الأصل منى حيث كنت وإننى    من المزنيين المصفين بالكرم(١)

وعاشت قبيلة الشاعر بين الغطفانيين والمزنيين فى الحاجر بنجد شمالى شرق شبه الجزيرة العربية مع أخوال أبيه ربيعة من بنى مرة بن عوف ، وبنى عبد الله بن غطفان ، وهما من بنى ذبيان .

ولم يعمر أبو سلمى طويلا ، وخلف أبناء له بين أخواله اشتهر منهم زهير ، وسلمى ، والخنساء ، ثم دخل بأم زهير من بعده الشاعر التميمى المشهور أوس بن حجر ، الذى تأثر به زهير وروى له شعراً ، كما تأثر بخاله بشامة بن الغدير ، فروى شعره ، وعاش فى كنفه هو وأختاه فى يسر ورغد من العيش لكثرة أمواله . ذكر ابن سلام الجمحى أن بشامة بن الغدير: « كان ممن فقأ عين بعير فى الجاهلية ، وكان الرجل إذا ملك ألف بعير فقأ

---

(١) الشعر والشعراء : ابن قتيبة جـ ١ ص ٨٦ .

عين فخلها»(١). وكان سيداً فى قومه حازما يستشيره الناس ويصدرون عن رأيه، ولم يخلف ولدا من بعده، فقسم ماله بين أهل بيته، وخص زهيراً بنصيب منه، وقال له: إنى أعطيتك ما هو أفضل من المال، فقال زهير ما هو؟ فقال له: شعرى(٢) فتأثر بأخلاقه ونبله، وأخذ عنه شعره الذى كان يصور حروب عشيرته من بنى ذبيان فى حرب داحس والغبراء يحض فيها قومه على ألا يخذلوا عشيرتهم أمام بنى عبس فى حروبهم وأيامهم.

وتزوج زهير من امرأتين: الأولى أم أوفى ومات أولادها جميعا ولم تمكث معه بل طلقها، وكان يذكرها دائماً فى شعره، ثم تزوج بالثانية وهى كبشة بنت عمار الغطفانية، وهى أم أولاده: كعب وبجير وسالم.

## شاعريته:

زهير أحد المشاهير الثلاثة الذين تقدموا على شعراء الجاهلية وهم: امرؤ القيس وزهير، والنابغة الذبيانى، بل كان زهير أحكمهم شعراً وأبعدهم من سخف، وأجمعهم لكثير من المعنى. فكان من ورائه عوامل أعانت على صقل موهبته الفذة، وهذبت قريحته، وأقامت له منهجا واتجاها فى الشعر تميز به بين شعراء عصره، ومن أهم هذه العوامل:

١ — نشأ زهير وعاش فى أسرة غلب عليها تعاطى الشعر عن موهبة وقريحة فقد كان أبوه شاعراً، وأختاه سلمى والخنساء شاعرتين، وكذلك زوج أمه أوس بن حجر، وخاله بشامة بن الغدير، أخذ عنه الشعر أبناؤه من بعده كعب وبجير، وأحفاده عقبة بن كعب، والعوام بن عقبة بن كعب، فهو سليل بيت نبغ فيه الشعراء عن قريحة وأصالة وينبوع يسيل رقة وقوة.

---

(١) طبقات فحول الشعراء: ابن سلام ص ٨٨، ٥٦٣.

٢ — كان زهير راوية لزوج أمه أوس بن حجر الشاعر التميمى المشهور فأخذ شعره وتأثر به .

٣ — وروى أيضاً شعر طفيل الغنوى الذى اشتهر بوصف الخيل وتصوير الصيد ، فأخذ عنه براعة التصوير الأدبى . وتنقيح الصور ، وتهذيب الصياغة وصقل التراكيب .

٤ — أما خاله بشامة بن الغدير فقد عاش فى كنفه يحفظ عنه ويروى له ، بل ترك له وصية خيراً من ماله الموروث ، وهى شعره وخلقه وخاصة وقد كان شاعراً لعشيرة يصف حروبها ، اشتهرت بين العرب بداحس والغبراء ، فهزت مشاعر زهير ، وأثارت أحاسيسه ، واستأثرت بشاعريته ، واستبدت بشعره .

واستمرت الحرب بين عبس وذبيان من مضر أربعين عاما ، اندلعت بسبب الغدر والرهان ، فقد تراهن قيس بن زهير من بنى عبس على فرسه « داحس » مع حمل بن بدر من بنى ذبيان على فرسه « الغبراء » ، وكان الرهان على مائة بعير لمن يسبق فى أربعمائة ذراع ، يحفها شعاب كثيرة ، أكمن فيها غبوا حمل بن بدر فتيانا له يردون داحس عن السبق . . فلما سبقت الغبراء قال حمل بن بدر : سبقتك يا قيس ، فلما أوغلا فى الجراد وخرجا إلى الوعث برز داحس عن الغبراء . فقال قيس : « جرى المذكيات غلاء » ، فذهبت مثلا ، فلما شارف داحس الغاية ودنا من الفتية ، وثبوا فى وجه داحس فردوه عن الغاية ، فقال قيس بن زهير :

كما لاقيت من حمل بن بدر ... وإخوته على ذات الأصاد
همو فخروا على بغير فخر ... وردوا دون غايته جوادى(١)

(١) العقد الفريد : ابن عبد ربه ٤٥٣/١ ، الجرد : الفضاء الخالى من =

وبعث حذيفة بن بدر ابنه مالكا يطلب الرهان من قيس بن زهير، فرفض وسدد رمحه إلى صلبه فمات، وعادت فرسه إلى قومه، فاجتمع الناس واحتملوا الدية مائة عشراء ورضى بها حذيفة. لكنه عاد ليأخذ بثأر ابنه حينما علم بأن مالك أخا قيس بن زهير بأرض الشربة عدا علية فقتله، فأنشده عنترة قوله:

فلله عينا من رأى مثل مالك ... عقيرة قوم لن جرى فرسان
فليتهما لم يجريا قيد غلوة ... وليتهما لم يرسلا لرهان(١)

فقال بنو عبس: مالك بن زهير بمالك بن حذيفة وردوا علينا مالنا، فأبى حذيفة أن يرد شيئاً، فقال الربيع بن زياد عم قيس بئس ما فعلتم بقومكم قبلتم الدية، ثم رضيتم بها وغدرتم ثم قال الربيع:

فإن تك حربكم أمست عوانا ... فإنى لم أكن ممن جناها
ولكن ولد سودة أرثوها ... وحشوا نارها لمن اصطلاها
فإنى غير خاذلكم ولكن ... سأسعى الآن إذ بلغت مداها

ودارت الحروب بين عبس وذبيان واستمرت أربعين عاما، وكان من أيامها يوم المرتقب وانتصرت فيه عبس على ذبيان، ويوم ذى حسا وانتصرت فيه ذبيان على عبس، ويوم الهياءة، وكان لعبس على ذبيان وقتل فيه حمل بن بدر وأخوه حذيفة. ولما اشتد الكرب بحمل قال: ناشدتك الله والرحم يا قيس: فقال: لبيكم لبيكم، فعرف حذيفه أنه ان يدعهم،

---

= النبات، الوعث: الطريق الرخو تخوض فيه القدم، المذكيات: المسنة من الخيل، وغلاء بمعنى الغلبة والسبق.

(١) غلوة: مسافة أربعمائة ذراع.

فانتهر حملا وقال : « إياك والمأثور من الكلام » فذهبت مثلا ، وقال لقيس : لئن قتلتنى لا تصلح غطفان بعدها ، فقال قيس : أبعدها الله ولا أصلحها وأما قتلا قال قيس يرثى حمل بن بدر :

تعلم أن خير الناس ميت ... على جفر الهباءة ما يريم
ولولا ظلمه ما زلت أبكى ... عليه الدهر ما طلع النجوم
ولكن الفتى حمل بن بدر ... بغى والبغى مرتعه وخيم
أظن الحلم دلّ علىّ قومى ... وقد يستضعف الرجل الحليم
ومارست الرجال ومارسونى ... فمعوج على ومستقيم

وتفرقوا فنزلوا أرض اليمامة عند إخوانهم من بنى حنيفة ثم إلى بنى سعد ابن زيد مناة .

ثم كان يوم الفروق ، وسعى الحارث بن عوف وهرم بن سنان فى الصلح بين الفريقين وتحملا ديات القتلى ، وفى ذلك قال زهير بن سلمى فى معلقته :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم ... بحومانة الدراج فالمتثلم

إلى أن قال :

يمينا لنعم السيدان وجدتما ... على كل حال من سحيل ومبرم
تداركتما عبساً وذبيان بعدما ... تفانوا ودقوا عطر منشم
وقد قلتما إن ندرك السلم واسعا ... بمال ومعروف من الأمر نسلم
فأصبحتما منها على خير موطن ... بعيدين فيها من عقوق ومأثم
عظيمين فى عليا معد وغيرها ... ومن يستبح كنزاً من المجد يعظم (١)

---

(١) السحيل : يقابل المبرم أى أنهما خير فى كل أمر أبرماه أم لم يبرماه ، منشم امرأة كانت فى مكة غمس قوم أيديهم فى عطرها وتعاهدوا على الحرب حتى قتلوا جميعاً .

٥ — وتميز زهير فى شعره من بين شعراء طبقته يرجع أيضاً إلى غرامه بتهذيبه وصقله وتثقيفه وتجويده وتنقيحه ومعاودته مرات حتى يستقيم فى أجمل صورة لفظاً وأسلوبا وقالبا وقافية ، ولذلك كان زعيم مدرسة فى الشعر تخضع للفن فى صناعة رشيقة وتنسيق محكم للألفاظ والتراكيب والصور فقد كان زهير يخرج القصيدة فى حول كامل حتى صنع سبع حوليات » يقول الجاحظ « كان زهير بن أبى سلمى يسمى كبار قصائده الحوليات ، ولذلك قال الحطيئة : خير الشعر الحولى المحكك وقال الأصمعى زهير ابن أبى سلمى والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر ، وكذلك كل من جود فى شعره ووقف عند كل بيت قاله ، وأعاد فيه النظر ، حتى يخرج أبيات القصيدة كلها مستوية فى الجودة »(١) .

ثم يصف الجاحظ شعره فيقول : « من شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا وزمنا طويلا يردد فيها نظره ، ويجيل فيها عقله ، ويقلب فيها رأيه ، اتهاما لعقله ، وتتبعا على نفسه ، فيجعل عقله زماما على رأيه ، ورأيه عياراً على شعره ، إشفاقا على أدبه ، وإحرازا لما خوله الله من نعمته ، وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات والمقلدات والمنقحات والمحكمات ، ليصير قائلها فحلا خنذيذا وشاعرا مفلقا »(٢) .

لهذا أجاد بموهبة التصوير الأدبى وأحسن أدوات التهذيب فى شعره فافتتن به شعراء ساروا على نهجه منهم ولداه كعب وبجير ثم الحطيئة .. قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه يوماً لابن عباس هل تروى لشاعر الشعراء . قال : ومن هو ؟ قال الذى يقول :

---

(١) البيان والتبيين : ١٣/٢ .

(٢) المرجع السابق ٩/٢ ، كريتا : كاملا ، خنذيذا : تاما .

ولو أن حمداً يُخلِّد الناس أخلدوا    ولكن حمد الناس ليس بمخلد

قلت : ذاك زهير ، قال : فذلك شاعر الشعراء ، قلت وبم ؟ قال : لأنه لا يعاظل فى الكلام ، وكان يتجنب وحشى الشعر ، ولم يمدح أحداً إلا بما فيه »(١).

قصيدة زهير ومطلعها :

صحا القلب عن سلمى وقد كاد لا يسلو
وأقفر من سلمى التعانيق فالثقل

كانت من بين قصائده التى يمدح بها الحارث بن عوف وهرم بن سنان فى سعيهما للصلح بين عبس وذبيان وللتنفير من الحرب والدعوة إلى السلم وحقن الدماء ، فتحملا ديات القتلى وساد السلام بين القبائل بعد حرب دامت أربعين عاما فأشاد الشاعر بمكارمهما وأفسح شعره لمدائحهما ، حتى كاد أن تقتصر مدحياته عليهما فحسب، لأنهما تجاوبا معه، واستجابا لدعوته وحبه للسلام بين الناس ومن القصص الطريف التى وقعت للحارث بن همام أثناء الصلح ما جاء فى الأغانى :

قال الحارث بن عوف لخارجة بن سنان : أترانى أخطب إلى أحد من العرب فيردنى قال : نعم ؟ قلت ومن ذاك ؟ قال : أوس بن حارثة بن لأم الطائى ، فقلت لغلامى ارحل بنا ، فركبنا حتى أتينا أوس بن حارثة . فوجدناه فى منزله ، فلما رآنى قال مرحبا بك يا حار ، قلت : وبك ، قال: ما جاء بك؟ قلت : جئتك خاطبا ، قال : لست هناك . فانصرفت ولم أكلمه.

ودخل أوس على امرأته مغضبا وكانت من عبس ، فقالت : من رجل

---

(١) الأغانى : الأصفهانى ٢٨٩/١٠ .

وقف عليك فلم يطل ولم تكلمه ؟ قال : ذاك سيد العرب الحارث بن عوف بن أبي حارثة المرى قالت : فما لك لا تستنزله ؟ قال : إنه استحمق . قالت وكيف ؟ قال : جاءنى خاطبا ، قالت : أفتريد أن تزوج بناتك ؟ قال نعم ، فإذا لم تزوج سيد العرب فمن؟ قال : قدكان ذلك ، قالت : فتدارك ما كان منك . قال بماذا ؟ قالت : تلحقه فترده ، قال : وكيف وقد فرط منى ما فرط إليه ؟ قالت : تقول له إنك لقيتنى مغضبا بأمر لم نقدم فيه قولا ، فلم يكن عندى من الجواب إلا ما سمعت فانصرف ولك عندى كل ما أحببت فإنه سيفعل .

فركب أوس فى أثرهما ، قال هرم بن سنان أو خارجة بن سنان ، فوالله إنى لأسير إذا حانت منه التفاتة فرأيت أوساً ، فأقبلت على الحارث وما يكلمنى غما ، فقلت له : هذا أوس بن حارثة فى أثرنا ، قال : وما نصنع به ، امض ، فلما رآنا لا نقف عليه صاح يا حار إربع علىّ ساعة ، فوقفنا له ، فكلمه بذلك الكلام فرجع مسروراً ، فبلغنى أن أوسا لما دخل منزله قال لزوجته : ادعى لى فلانة لأكبر بناته ، فقال يا بنية : هذا الحارث ابن عوف سيد من سادات العرب ، قد جاءنى طالباً خاطبا وقد أردت أن أزوجك منه فما تقولين ؟ قالت : لا تفعل ، قال : ولم ؟ قالت لأنى امرأة فى وجهى ردة ، وفى خلقى بعض العهدة ، ولست بابنة عمه فيرعى رحمى وليس بجارك فى البلد فيستحى منك ، ولا آمن أن يرى منى ما يكره فيطلقنى ، فيكون علىّ فى ذلك ما فيه .

قال : قومى ، بارك الله عليك . ادعى لى فلانة — لابنته الوسطى — فدعتها ثم قال لها : مثل قوله لأختها ، فأجابته بمثل جوابها ، وقالت : إنى خرقاء ، وليست بيدى صناعة ، ولا آمن أن يرى منى ما يكره فيطلقنى ،

فيكون على فى ذلك ما تعلم وليس بابن عمى فيرعى حقى ، ولا جارك فى بلدك فيستحييك: قال: قومى بارك الله عليك . قال: ادع لى « بهيسة » - يعنى الصغرى - فأتى بها فقال لها : كما قال لهما ، فقالت أنت وذاك فقال لها : إنى قد عرضت ذلك على أختيك فأبتاه . ولم يذكر مقالتيها - فقالت الكنى والله الجميلة وجها الصناع يدا ، الرفيعة خلقا ، الحسيبة أبا ، فإن طلقنى فلا أخلف الله عليه بخير .

فقال : بارك الله عليك . ثم خرج إلينا فقال : قد زوجتك ياحار « بهيسة » بنت أوس ، قال : قد قبلت . فأمر أمها أن تهيئها وتصلح من شأنها ، ثم أمر ببيت فضرب له وأنزله إياه فلما هيئت بعث بها إليه . فلما أدخلت لبث هنيهة ثم خرج إلى . فقلت : أفرغت من شأنك ؟ قال : لا والله . قلت : وكيف ذاك ؟ قال : لما مددت يدى إليها قالت : مه ! أعند أبى وإخوتى !! هذا والله مالا يكون ، قال : فأمر بالرحلة فارتحلنا بها معنا ، فسرنا ما شاء الله . ثم قال لى تقدم ، فتقدمت وعدل بها عن الطريق ، فما لبث أن لحق بى ، فقلت : أفرغت ؟ قال : لا والله حتى تنحر الجزر ، وتذبح الغنم ، وتدعو العرب ، وتعمل ما يعمل لمثلى ، قلت : والله إنى لأرى همة وعقلا ، وأرجو أن تكون المرأة منجبة إن شاء الله ، فرحلنا حتى جئنا بلادنا فأحضر الإبل والغنم ، ثم أدخل عليها وخرج إلى . فقلت : أفرغت ؟ قال : لا . قلت : ولم ؟ قال : دخلت عليها أريدها وقلت لها : قد أحضرنا من المال ما ترين . فقالت : والله لقد ذكرت لى من الشرف ما لا أراه منك . قلت : وكيف ؟ قالت : أتفرغ لنكاح النساء ، والعرب تقتل بعضها « وذلك فى أيام حرب عبس وذبيان » . قلت : فيكون ماذا ؟ قالت: اخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم ، ثم ارجع إلى أهلك ، فلن يفوتك ،

فقلت : والله إنى لأرى همة وعقلا ، ولقد قالت قولا . قال : فاخرج بنا ، فخرجنا حتى أتينا القوم فمشينا فيما بينهم بالصلح فاصطلحوا على أن يحتسبوا القتلى ، فيؤخذ الفضل ممن هو عليه ، فحملنا عنهم الديات ، فكانت ثلاثة آلاف بعير فى ثلاث سنين ، فانصرفنا بأجمل الذكر ... قال محمد بن عبد العزيز : فمدح بذلك وقال فيه زهير بن أبى سلمى »(١) .

* * *

## شرح القصيدة :

صحا القلب عن سلمى وقد كاد لا يسلو ... وأقفر من سلمى التعانيق فالثقل

وقد كنت من سلمى سنين ثمانيا ... على صير أمر ما يُمر وما يحلو

وكنت إذا ما جئت يوما لحاجة ... مضت وأجمت حاجة الغد ما تخلو

وكل محب أحدث النأى عنده ... سلو فؤاد غير حبك ما يسلو(٢)

حركت المشاعر أوتار القلب ، فأفاق الشاعر عن حب سلمى ، وكيف يفيق ؟ وقد تمكن الحب منه ، بعد ما خلت مواطن الذكريات منها ، وعفت الديار عنها ، التى أبلى فيها ثمانى سنوات بلا طائل : فلا هو موصول فيستريح فؤاده ، ولا هو مقطوع فييأس منها ، بل مازالت حاجات

---

(١) الأغانى : ١٠/٢٩٤ .

(٢) صحا : أفاق ، يسلو : نسى وانصرف عن الشىء فلا يسلو لا يفيق ، أقفر التعانيق والثقل : أى خلا هذان الموضعان ، على صير أمر : نهايته ، ما يمر وما يحلو : أى الأمر فليس مرا ولا حلوا ، لا رجاء فيه ولا يأس منه ، ويضرب هذا مثلا شائعا بين العرب ، أجمت : قربت ، حاجة الغد ما تخلو : المرء فى حاجة ما دام حيا ، النأى : البعد والفراق .

النفس ، ومطالب الحب تلح عليه كلما مر بالدار الخالية فأثارت ذكرياته وجددت الأمانى :

تموت مع المرء حاجاته وتبقى له حاجة مابقى

فالحب وإن جرح القلب فسيبرأ بتقادم العهد ، وإن أمض الوجدان فسيذهب بآثاره تعاقب الليالى والأيام ، وإن ألم بالمشاعر ، فسيمحوها البعد ، ويسلوها الزمان .. وليس الشاعر كذلك فجرحه عميق لا يبرأ وإن تقادم العهد به ، وحبه قوى لا يبرح ، وإن طال الزمن وعفت الديار :

وقد زعموا أن المحب إذا دنا يمل وأن النأى يشفى من الوجد
بكل تداوينا فلم يشف مابنا على أقرب الدار خير من البعد

ويقول زهير :

تأوبنى ذكر الأحبة بعدما هجعت ودونى قلة الحزن فالرمل
فأقسمت جهداً بالمنازل من منى وما سحقت فيه المقادم والقمل
لأرتحلن بالفجر ثم لأدأبن إلى الليل إلا أن يعرجنى طفل
إلى معشر لم يورث اللؤم جدهم أصاغرهم وكل فحل له نجل(١)

أرق الشاعر ذكر الحبيب ليلا ، وأقض مضاجعه بعد ما نام الليل

---

(١) تأوب : أتى ليلا ، هجع : نام ، القلة : قمة الشىء ، الحزن : ما غلظ من الأرض جهداً : أى مجهوداً والمراد المبالغة فى القسم ، المنازل : المشاعر التى ينزل بها الحجيج فى منى ، سحقت : حلقت ، المقادم : النواصى ، القمل : حشرة والمراد الشعر موطن القمل ، الارتحال : السفر ، الدأب : مواصلة السير والجد فيه ، عرج : حبس ، طفل : لد الناقة ، أصاغر : الصغار ، الفحل : الذكر ، نجل : نسل .

على الرغم من بعد الديار ومشقة السفر : هذه المشاعر هى التى أغرته بالرحيل إلى أحبائه الممدوحين فأقسم بالمشاعر التى يعظمها العرب أن يبدأ الرحلة فى الصباح الباكر على ناقة قوية لا تعرف الراحة ، ولا تتوانى فى الطريق ، أو تعجز عن الوصول إلا إذا أجهضت فلا تحتمل السير ، فيعبر عن مشاعر الحب لهؤلاء الكرام الذين ورثوا الشمائل الكريمة عن آبائهم وأجدادهم ، فما أشبه الولد بأبيه ، وكل بئر بما فيه ينضح .

والشاعر فى هذا المقطع قد أجاد التخلص من الغزل إلى المديح فى براعة واقتدار ، وتسلل إلى المديح فى رفق وسيولة ، ليجد فى فيض مشاعره بالمحبة للممدوح عوضا عن مرارة الجوى وسلوانا عن سلمى ، فهؤلاء القوم جديرون بالحب والتقدير ، لأنهم ورثوا المكارم والشيم عن الآباء والأجداد .

ويقول زهير :

تربص فإن تقوِ المرَوراة منهم ... وداراتُها لا تُقوِ منهم إذاً نخل

فإن تقويا منهم فإن مُحجَّراً ... وجزع الحسا منهم إذا قلما يخلو

بلاد بها نادمتهم وألفتهم ... فإن تقويا منهم فإنهما بسل(١)

يخاطب الشاعر نفسه فيقول : تمهل قليلا فهم قوم أثرياء اتسعت بلادهم ، وانتشرت مراعيهم ، يماشونها برجالهم وخيراتهم ، فإن خلت

---

(١) تربص : تمهل ، تقوى : تخلو ، المروراة : أرض ، الدارة : السهل من الأرض تحيط بها الجبال ، نخل : موضع به بستان معروف لبنى عامر ، محجر وجزع الحسا : موضعان ، والمنادمة : مجلس الشراب ، الألفة الصحبة ، بسل : حرام .

بعض البلاد منهم ، فلن تخلو الأخرى ، ويوم أن تخلو — ولا كان ذلك — فيحرم على الرحيل إليها إذ لم يبق فيها ما يقصد ، كيف هذا ؟ وهم دائماً المطلوبون فى ديارهم دون سواهم فهى تنعم بالذكريات الخالدة ، فكثيراً ما صاحبتهم فيها وجالستهم ، وقضيت أوطار الشباب بين ربوعها ، فلها من نفسى أحلى الأمانى ، ومن قلبى أغلى الذكريات .

ويقول زهير :

إذا فزعوا طاروا إلى مستغيثهم ... طول الرماح لا ضعاف وعزل
بخيل عليها جنة عبقرية ... جديرون يوماً أن ينالوا فيستعلوا
عليها أسود ضاريات لبوسهم ... سوابغ بيض لا تخرقها النبل
وإن يقتلوا فيشتفى بدمائهم ... وكانو قديماً من مناياهم القتل(١)

هم قوم شجعان أقوياء ، يتسارعون إلى نجدة المستغيث ، يمنعونهم بخيل قوية عليها فرسان صناديد كأنهم الجن فى دهائهم وسرعة نفاذهم ، وهم يلبسون دروعا مصقلة محكمة الصنع ، لا تنفذ فيها السهام ولا تخرقها

---

(١) فزعو : الذعر والغوث وهو من معانى الأضداد والمراد هنا الغوث والنجدة ، طار : أسرع نجدة للمستغيث ، مستغيث : مستنجد ، طوال الرماح : كناية عن كمال الخلق واعتدال القوام فهم قادرون على النصره ، عزل : المجرد من السلاح ، الجنة : جمع الجن والمراد الفوارس الدهاة الذين ينفذون إلى أعدائهم ، عبقر موضع تزعم العرب أنه كثير الجن ينسب إليه كل ما يتعجب منه ، ضاريات : متعودات على الحروب ، لبوسهم : ملبوسهم ، سوابغ : دروع سابغة ، بيض : من معدن جيد لا تخرقها النبل : محكمة لا ينفذ فيها السهم .

الرماح ، قادرون على النصر ، جديرون بالظفر على أعدائهم ، وفى سبيل ذلك يتسارعون فى ساعة القتال ، فقد تعودوا على الحروب غير هيابين بالموت ، يستقبلون القتل غير كارهين فى شجاعة تحت ظلال السيوف وفى حومات الوغى .

ويقول زهير :

إذا لقحتْ حرب عوان مضرة ضروس تهر الناس أنيابها عطل

قضاعية أو أختها مضرية يحرق فى حافاتها الحطب الجزل

تجدهم على ما خيلت هم إزاءها وإن أفسد المال الجماعاتُ والأزل

يحشونها بالمشرفية والقنا وفتيان صدق لا ضعاف ولا نكل

تهامون نجديون كيدا ونجعة لكل أناس من وقائعهم سجل

هم ضربوا عن فرجها بكتيبة كبيضاء حرس فى طوائفها الرَّجلُ(١)

(١) لقحت الناقة : إذا قبلت ماء الفحل عند هيجانها والمراد هاجت الحرب عن شرها فصار مثلا عن شدة الحرب ، عدوان : الحرب التى تكررت مرة بعد أخرى ، الضروس : الناقة التى تعض حالبها والمراد الحرب المهلكة ، تهر الناس : يجزع الناس منها لشدتها وفى المثل : « شر أهر ذا ناب » ، العصل : المعوجة الصلبة ، قضاعة : قبيلة يمنية ، حافة : جانب ، الجزل : الصلب الغليظ من الحطب ، خيلت : شبهت أى على كل حال ، إزاءها : ساستها ، الأزل : حبس المال على الحرب فلا يرسل إلى المرعى ، يحشونها : يوقدونها ، المشرفية : السيوف المنسوبة إلى مشارف الشام ، القنا : الرماح ، فتيان صدق : غير جبناء يصدقون فى الحرب ، نكل : جبناء =

إذا اشتعلت الحروب بين القبائل ، واشتدت وطأة القتال وغلت المراجل بالقبائل اليمنية والمضرية، حتى سئمها الناس وخشوا بأسها ، حثهم الساسة المدبرون الذين يقودون المعارك ويخوضون غمارها ، لا يهابون الموت وإن فنوا جميعاً ، فتزداد ضراوة بالرماح الخطية والسيوف المشرفية فأبطالهم لا يجبنون عن الأقران ، ولا يخذلون المظلوم ، ويذودون عن المحارم لا تقف دونهم قبيله ، أو يصدهم موقع أو حاجز إلا وقد أغاروا عليه تارة ، أخرى أنزلوا من ورائهم حماة الثغور ، فتفرقت كتائبا فى الشعاب كالجبالى الرواسى ، لا تهزها العواصف ، ولاتعبث بها الرياح .

ويقول زهير :

متى يشتجرْ قوم تقل سَرواتهم ... هم بيننا فهم رضا وهم عدل

هم جردوا أحكام كل مُضِلة ... من العقم لا يلفى لأمثالها فصل

بعزمة مأمور مطيع وآمر ... مطاع فلا يلفى لحزمهم مثل

---

= وفى الأصل الناكل هو الراجع عن قرنه جبناً ، تهامون : نجديون يأتون نجداً وتهامة عزين ومنتجعين ، النجعة : طلب المرعى ، الكيد : المكر والمراد الحرب ، السجل : الدلو العظيمة المملوءة ماء والمراد النصيب ، ضربوا : دفعوا ، الفرج : الثغر ، الكتيبة : القطعة من الجيش ، حرس : جبل ، بيضاءوا : شمراخ منه ، طوائفها : نواحيها ، الرجل : الرجال .

(١) يشتجر القوم : إذا اختلفوا ، السروات : الأشراف، فهم رضا: أى مرضيون ، جردوا : أخرجوا ، مضلة : من الضلال والحيرة ، العقم : انسداد الرحم والمراد المشكل من الأمور والأحكام ، العزمة : الصبر ، يلفى : يوجد ، والحزم : ضبط الأمر ، المثل : النظير .

إذا ادلهمت الخطوب بين الناس ، وتعقدت المشاكل ، وقذفت بهم فى مجاهل التيه والحيرة ، احتكموا إليهم ، ليستنيروا بسداد الرأى ، وينتصفوا بعدالة الأحكام ، فإذا بهم يبددون الظلمات ، ويقيمون موازين العدالة ، فتنجلى الأمور ، وتنحل المشكلات ، وينزل الناس على حكمهم فى رضى واقتناع ، لما اشتهروا من العزيمة الصادقة ، والكلمة الثاقبة ، والعدل فى الحكم ، والحزم فى المعضلات .

ويقول زهير :

| | |
|---|---|
| ولست بلاق بالحجاز مجاوراً | وذا سفر إلا له منهمُ حبل |
| بلاد بها عزوا معدًّا وغيرها | مشاربها عذبٌ وأعلامها ثمْل |
| هم خير حى من معد علمتهم | لهم نائلٌ فى قومهم ولهم فضل |
| فرحت بما خبرت عن سيديكم | وكانا امرأين كلٌ أمرهما يعلو |
| جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم | فأبلاهما خير البلا الذى يبلو |
| تداركتما الأحلاف قد ثل عرشها | وذبيان قد زلت بأقدامها النعل |
| فأصبحتما منها على خير موطن | سبيلكما فيها وإن أحزنوا سهل(١) |

---

(١) المجاور : المقيم فالجوار ، ذا سفر : المسافر ، حبل : عهد ، عزوا : غلبوا ، مشاربها : المشرب ، أعلامها : جبالها ، ثمل : خفض ، نائل : عطاء ، فضل : إحسان ، السيدان : الحارث بن عوف وهرم بن سنان ، خبرت : ما علم عنهما من إصلاح ، حمل : ديات القتلى فى حرب داحس والغبراء ، أمرهما : شأنهما ، أبلاهما : صنع لهما والبلاء فى الخير والشر قال تعالى : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » ، الأحلاف أسد وغطفان وطيء ، ثل عرشها : ذهب عزها وحقيقة العرش سقف البيت ، ثله : كسره ، زلت النعل : =

طار ذكرهم بالحجاز ، وذهب صيتهم فى ربوع الجزيرة فاستجار بهم المقيم والمسافر ، ليعيش فى حماهم ، ويستظل بأمنهم ، وينعم بخيراتهم التى فاضت بها أرضهم الطيبة ومياههم العذبة ، بهذا الثراء انتصروا على معد وغيرها وأغدقوا عليها العطاء لينال منه القريب والبعيد على السواء ؛ فهم يحسنون صلة الأرحام ، ويرعون حرمة الجيران ، وليس غريبا عليهم؛ فهم خير حى من بطون معد لشجاعتهم وثرائهم وكرمهم وحسن جوارهم .

ومما ضاعف من سرور الشاعر ما بلغه عن الحارث بن عوف وهرم ابن سنان من إصلاح ذات البين بين عبس وذبيان ، واحتمال الديات ، وليس هذا غريباً عليهما فقد طبعا على فعل الخير من قديم ، وتقديم المعروف ، الذى رفع من شأنهما وأعلى من قدرهما ، أحسن الله إليهما على قدر ما قدما لقومهما من نجدة وإصلاح وإحلال المحبة والسلام بعد أن ذهب عز المتحالفين وحل الخراب بهم ، وانغمسوا فى غياهب الضلال ، فأصبح القوم بفضل السيدين يؤثرون السلم على الحرب بينما تدعو غيرهم للحرب والدمار ، وقد حملا أنفسهما فى سبيل ذلك من الأموال والإصلاح ما تعجز القبائل عنه وتنوء به الطوائف ، وهذا شأن أهل الخير وأحباء السلام وعشاق المحبة ، فدائما هم فى أسمى مواطن العز ، وأعلى منازل الشرف .

ويقول زهير :

إذا السنةُ الشّهباءُ بالناس أجحفتْ
ونال كرامَ المال فى الحجرة الأكل

= زلفت بصاحبها والمراد الانحراف عن الصواب ، ذبيان قبيلة الممدوحين على خير موطن : أى على أشرف مكان لقيامهما بالصلح .

رأت ذوى الحاجات حول بيوتهم قطيناً بها حتى إذا نبت البقل
هنالك إن يُستخبَلوا المال يُخبِلو
وإن يُسألوا يعطوا وإن ييسروا يُغلو
وفيهم مقاماتٌ حسانٌ وجوهُهم وأنديةٌ ينتابها القولُ والفعل
على مكثريهم حق من يعتريهمُ وعند المُقلين السماحةُ والبذل

إذا بخلت السماء وأجدبت الأرض وهلكت الأموال ، ولحق الضرر بالناس ، فزع المحتاجون إلى القوم فيزول البؤس، ونزل الفقراء فى ديارهم فيذهب القحط ، بل كانوا يخالطونهم كأهليهم لا فرق بين حى وحى ، ولا بين قريب أو بعيد ، فالجميع فى ساحة الكرم سواء حتى إذا ما جادت السماء واخضرت الأرض ، وعم الرخاء أصبح العائدون فى حل إما أن يظلوا بينهم مكرمين ، وإما أن يرحلوا عنهم شاكرين حسن الصنيع وكرم الضيافة ، وهم يذكرون لهم الحياة الكريمة ، والسماحة والكرم من رجال

---

(١) السنة الشهباء : الجدباء فهى بيضاء لكثرة الثلج وعدم النبات ، أجحفت : أهلكت الأموال ، الحجرة : السنة الشديدة البرد تحبس الناس فى الحجرات والبيوت ، كرام المال : الإبل فإن خلت من اللبن صارت طعاما ، وذوى الحاجات : الفقراء ، قاطن الدار : الساكن فيها ، أخبل الرجل : أن يأخذ الرجل ناقة ينتفع بلبنها ووبرها ثم يردها لصاحبها ، ييسر : يقامر، يغلوا : يشتروا غالية ، ينحروها : ينحرون فى القمار والميسر سمان الإبل ، المقامات : المجالس حيث يقوم فيها الخطيب ، الندى : المجلس، ينتابها القول والفعل : أى يتردد عليها الناس ، المكثرون : الأغنياء ، المقلون : الفقراء ، البذل : العطاء ، واعتراهم : قصدهم ، السماحة : الجود ،

لا يرتضون غير الثناء والحمد . تضىء وجوههم المجالس التى يحثون فيها على الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويؤثرون الصلح والسلام على الحرب والخصام ، وهم جديرون بالقول والفعل لهم فى سلوكهم من المكرمات ما يحمدون عليه فهم يحملون الكل ، ويعينون الضعيف ، ويعوذون الجار ، ويتحملون الديات ويقضون الحاجات لمن جار عليهم الدهر عن سماحة وندى ، لأن الكرم والنجدة طبيعة تجرى فى نفوسهم وتغلى فى عروقهم ؛ لتنبض بالأصالة والأمجاد .

وإن جئتهمْ ألفتَ حول بيوتهم مجالسَ قد يُشفى بأحلامها الجهل
وإن قام فيهم حامل قال قاعد رَشدْتَ فلا غرْمٌ عليك ولا خذْلُ
سعى بعدهم قوم لكى يدركوهمُ فلم يفعلوا ولم يُليموا ولم يَألوا
وما يَكُ من خير أتوه فإنما توارثه آباءُ آبائهم قبل
وهل يُنبتُ الخطىَّ إلى وشيجُه وتُغرَسُ إلا فى منابتها النخل(١)

يديرون مجالسهم بحصافة وحكمة ، وينفذون إلى المقاصد فى وقار وحلم ، وتظهر فى أحكامهم أمارات السيادة ، ويتزين الحوار بالسماحة

---

(١) ألفيت : وجدت ، يشفى : يذهب ، الجهل : السفه ، الأحلام : العقول ، حامل : كفيل ، والرشد والغى ضدان ، الغرم : الضرر ، الخذل : ترك النصرة ، السعى : العمل ، لم يليموا : لم يوجه لهم اللوم ، لم يألوا : لم يقصروا ، الخطى : الرماح المنسوبة إلى الخط : وهو ميناء بالبحرين ترسو فيه السفن المحملة بالرماح التى نسبت إليه ، وشيجه : عروقه ، تغرس : تنبت فى الأرض الخصبة .

والنبل ، فلا مكان بينهم لجاهل أو سيفه إلا إذا خرج من مجالسهم متعلما حليما ، وهم يتعاونون فى الخير ، وينهضون بالمجد والعلا ويرغبون فى حمل المغارم عن غيرهم ليعينوه على مروءته ، ويصلوا به إلى مواطن السيادة حتى يتكاثر الشجعان والكرماء بين الناس ، ليتعاونوا جميعاً على أن يسود السلام وينعمون بالأمن والرخاء ، وما عداهم فمهما تسابقوا إلى اللحاق بهم فى فعل المكرمات لينالوا منزلة بينهم ؛ فلم يبلغوا ما بلغوا ولم يصلوا إلى ما وصلوا ويكفى أنهم بذلوا ما فى وسعهم ولم يقصروا ، وكلفوا أنفسهم طاقتهم ، فلا ينبغى لأحد أن يلومهم على هذه الدرجة ، فأمجاد الممدوحين راسخة قديمة قدم الأحساب والمكارم لا يتطاول إليها أحد ، فقد ورثوها كابراً عن كابر وأخذها الخلف عن السلف ، فالولد سر أبيه تسرى فيه طبيعته ، وتستقر فيه الملامح والصفات ، فالرماح الخطية لا تصنع إلا فى موطنها ، والنخلة لا تغرس إلا فى الأرض الخصبة فكذلك القوم أمجاد كرماء نبتوا فى مواطن المجد والكرم .

* * *

# فى ظلال القصيدة

## الغرض من القصيدة :

لا نستطيع القول بأن القصيدة انفردت بغرض واحد من بين الأغراض التى تحددت فى ميزان النقد الأدبى العربى فتخلص لموضوع واحد فقط مما يسمى حديثاً بالوحدة الموضوعية ، بل احتوت القصيدة على أغراض هى الغزل ، والوصف ، والمدح ، كما لم تكن أشتاتاً متفرقة فيها كما يدعى البعض ، بل ارتبطت الأغراض الثلاثة برباط وثيق يسلكها فى عقد واحد لا ينفرط ، ألا وهو رباط نفسى يتصل بذات الشاعر حين يعبر عن نفسه ، ويصور أحاسيسه ، فتلك النفس وهذه الأحاسيس فى القصيدة ليست ممزقة أو أشتاتاً ، وإنما هى شعور واحد ، وإحساس صادق ، ونفس أحست بحب الممدوح الذى أثار فى النفس الحب المطلق ، بل أصدق ألوان الحب للإنسان والحياة والبيئة والطبيعة التى لا ينفصل عنها الشاعر ، فلا بد أن تعبر النفس عن مشاعرها نحو هذه كلها ، فحب الشاعر للممدوح يثير فيه الحب الصادق لحبيبته والحب الصادق لراحلته ، والحب الصادق للناس من حوله ، والحب الصادق للسماء والأرض ، والحب الصادق للبيئة والطبيعة من حوله ، والحب الصادق للعلاقات الاجتماعية بين الناس جميعاً ، وهذا كله يرتبط برباط وثيق واحد يتصل بنفس الشاعر ومشاعره ، فأحاسيسه أثناء التعبير عنها فى القصيدة هى رباط الوحدة النفسية ، وعلى ذلك فلم يخل هذا العمل الفنى من وحدة كما يدعى البعض ، بل قامت على الوحدة النفسية وهى رباط قوى يشد بإحكام معانى القصيدة وأفكارها .

ومطلع القصيدة يقوم على الغزل والنسيب وهو عند زهير غزل تقليدى جاد لا يعبر عن عاطفة مشبوبة أو أحاسيس ملتاعة أو وجدان مكلوم قد تحرق بآلام الصبابة وأنات الجوى ، فالشاعر ربما يكون قد بلغ حد الوقار فأصبح رجل العقل والرزانة فقد جاوز العمر الذى لاتصلح فيه أن يصور فى القصيدة لوعة الحب والأسى أو يستعيد بصورة مكشوفة حرقة الصبابه ونزيف الهوى . ولا يستطيع بحال أن تبرح النفس عن هذا الحب ، فمشاعره لا تنفك عن النفس فى كل حلقات العمر ، وبالضرورة لابد أن يعبر عنها فى صورة ما ، هذه الصورة قد تتخذ شكلا يتناسب مع عمر الشاعر وفصل من حياته ، وعلى هذا جاء النسيب هنا يصور مرحلة الوقار والاتزان فى حياة زهير فيتردد فى الكشف عن هذا الحب حينا فيقول :

صحا القلب عن سلمى وقد كاد لا يسلو

ثم ينتقل الشاعر بلطف من البيت الخامس إلى الغرض الثانى وهو الوصف لبلاد الممدوح من الجبال والحزن ، والراحلة ، والمروراة ، والدارات ونخل ومحجر ، وجزع الحسا ، ومواطن الصحبة ، ومجالس القوم ، ويتسلل فى براعة إلى الغرض الثالث وهو المدح فيمدح قبيلة السيدين أولا ويصف حربهم وشجاعتهم ، وذلك فى معظم أبيات المدح ، ولا يتناول السيدين فى تميز إلا فى أبيات أربعة ، فالرجل الجاهلى كان يمدح بقبيلته وجماعته لا بذاته وشخصه ، فهو شجاع بها ولها وليس بذاته وشخصه ، وإلا كان صعلوكا من الصعاليك منبوذاً عن القبيلة والجماعة ، كما حدث لعروة ابن الورد والسليك بن السلكه والشنفرى وغيرهم من الشعراء الذين خرجوا عن قبيلتهم ، هكذا كان حظ السيدين من المدح المتميز لشخصهما فى أربعة أبيات من أول قوله :

فرحت بما خبرت عن سيديكم　　وكانا امرأين كل أمرهما يعلو

وما بعده من أبيات .

منهج القصيدة :

ومنهج القصيدة بصفة عامة هو المنهج لها فى العصر الجاهلى غالباً ، يقوم على خصائص تعارف عليها النقد الأدبى من أهمها :

١ — تعدد الأغراض فى القصيدة الواحدة فى أغلب الشعر الجاهلى فيتصدر الغزل والنسيب المطالع ، ثم الوصف للرحلة والراحلة والطبيعة ومنازل القوم ، ثم الغرض الأساسى وهو المدح هنا وقد يكون فخراً أو رثاءاً أو اعتذاراً أو غير ذلك .

٢ — الالتزام بعمود الشعر العربى فى الوزن والقافية والبحر العروضى الواحد كما يلتزم الشاعر بالخصائص الفنية للعمود الشعرى فى الأسلوب والمعانى والخيال بصوره المألوفة من التشبيه والاستعارة والبديع الفطرى غير المتكلف وهو ما قامت عليه القصيدة ، فالبحر واحد والقافية لامية واحدة ، والأسلوب فصيح صحيح جزل قوى ، والمعانى قريبة لا غموض فيها ولا تعقيد ، وألوان الخيال تقوم على المقارنة فى المعانى بين طرفى التشبيه والاستعارة مما يألفه العرب فى العصر الجاهلى بلا مبالغة أو غلو ، وألوان البديع نادرة تتجاوب مع القريحة الصافية والفطرة المطبوعة .

٣ — التزام زهير بالخصائص الفنية للأغراض مما هو مصطلح عليه فى عمود الشعر العربى وهو ألا يخرج المدح مثلا عن ضروبه ومجاله فى

العصر الجاهلى وألا يتجاوز أسسه وقواعده وهى الشجاعة والمروءة ، والنجدة والجود والكرم ، والسؤدد والوجاهة ، وفصاحة المنطق وبلاغة القول والعزم والحزم ونفاذ العقل وما أشبه ذلك مما يدخل تحت هذا المصطلح النقدى فى مقاييس عمود الشعر العربى .

٤ — أن تؤدى القصيدة رسالتها التى تهيأت لها فى العصر الجاهلى فى تصوير حياة القبيلة والقبائل التى حولها ، والعلاقات التى تربط القبائل بعضها بالبعض أو تربط القبيلة بالأرض والطبيعة التى من حولها ، أو ترتبط بذات الشاعر والتعبير عن مشاعره ، لذلك كان الشاعر فى العصر الجاهلى غير الشاعر فى عصرنا الحديث له مكانته الاجتماعية والأدبية بين القبائل جميعا ، فكانت القبائل تشد الرحال للتهنئة والاحتفال بثلاثة فقط بشاعر ينبغ أو غلام يولد أو فرس تنتج .

وهكذا كانت قصيدة زهير هنا قد التزمت بمنهجها الجاهلى وهو أداء رسالتها بين القبائل من إشاعة السلام ، ونشر الأمن والرخاء ، والتنفير من الحروب والدمار .

## عناصر الموضوع فى القصيدة :

تضمنت القصيدة أفكارا واضحة اشتهرت فى الحياة العربية للعصر الجاهلى وتكاد أن تكون معروفة لدى الجميع ، لا تخفى على أحد فتطير بين القبائل وتجرى على كل لسان ، وعناصر الموضوع من المعانى والأفكار فى القصيدة هى :

١ — مشاعر الحب عند زهير ، فهى عواطف إنسانية ليست مكشوفة ، ولا سافرة ولكنها اتصفت بوشاح الوقار والاتزان والعقل وحكمة الكبار

وهى مع ذلك عواطف خالدة تتحرك دائماً مع الأيام وتبقى ، لا يؤثر فيها البعد ولا السلوان .

٢ ـ الارتحال إلى الممدوح فهو جدير بالمدح والثناء ، يستحق أكثر من ذلك بحق المشاعر التى يعظمها العرب .

٣ ـ البيئة الثرية بمكارم الممدوح والطبيعة الحافلة بأمجاده وجوده فهو ابن بجدتها ، وهى التى فاضت بكرمه وجوده وشجاعته ومروءته ، فكانت سجلا حافلا بأمجاد القوم وتاريخهم .

٤ ـ المدح بالشجاعة والظفر فى الحروب ، وإغاثة الملهوف ونصرة المظلوم ، فهم يرجون الموت فى ساحات القتال ، ويكرهونه على الفراش الوثير .

٥ ـ ضراوة حروبهم وشراسة معاركهم ، فهى حرب ضروس أنيابها عصل ومعارك قضاعية ويمنية ومضرية ونجدية تجتمع فيها أقوى الأسلحة وأمضاها وأشهرها بين العرب .

٦ ـ إنهم دائماً فى رباط ، فهم حماة الثغور كتائبهم قد أحاطت بهم كالجبال الشم الرواسى لا تزعزعها العواصف .

٧ ـ هم ساسة الحروب ومدبروها ، يقودونها بمهارة وعبقرية .

٨ ـ لهم مكانتهم الأدبية بين القوم ، يتميزون فى أحكامهم بالحكم العادل ، وفى حكومتهم بالقضاء الفاصل .

٩ ـ وهم معروفون بالكرم والجود وخاصة فى السنين المجدبة يقيم الناس حول بيوتهم ، ويطعمون المحتاجين بخير طعامهم ، وقد توارثوه فى أصالة وعراقة عن آبائهم وأجدادهم .

١٠ — مجالسهم عامرة بوجوه القوم ومحاسن الرجال ، تتزين ببلاغة القول وصواب الرأى ورجاحة العقل فيتعلم الجاهل ، وتزخر بوفرة الحلم فيخرج الأحمق حليما .

١١ — لهم مواقفهم الرائعة من التضحية والإيثار ، يتعاونون مع الخير إذا أراد أن يحمل الديات ، ويعينونه ولا يخذلونه ، حتى لا يستبدوا وحدهم بالفضل بين الناس ، والفصل فى قضايا القوم مما يدل على تعاونهم وتضحياتهم لا تعصبهم واحتكارهم .

خصائص الموضوع :

للموضوع فى القصيدة سمات تتميز بها المعانى والأغراض ، وخصائص فنية تتسم بها الأفكار وهى :

١ — ليس الغزل هنا مكشوفا ولا مبتذلا ، بل يصور عاطفة صادقة عما وقر فى نفس الشاعر مما يكنه الشاعر فى نفسه ومن دواعى الصدق الفنى فيه أن يعبر الشاعر عن نفسه أصدق تعبير حين يعبر عن غزل شيخ كبير ، وحكيم اشتهر بالحكمة والرزانة فى نمط فنى يصور فيه مشاعره فقط فى هذا العمر بلا انطلاق أو ابتذال ، بل أحيانا يتردد فى تصوير مشاعر الحب فى غزله كما فى مطلع القصيدة وأحياناً يغمض عينيه فى قصائد أخرى ، فيذكر بعد أن يبدأ المطلع عبارات مثل : « دع ذا » ، أو « فعد عما ترى » وغيرها فالغزل هنا تصوير فنى وليس كشفا عن تباريح الهوى أو نزيفا من حريق الجوى .

٢ — أما معانى الوصف فقد ذكر فيها الأماكن التى يقطنها القوم ، والبيئة التى تجاوبت أصداؤها معهم على أنها هى السجل التاريخى لبلاد

غطفان فى القديم ، والكتاب الحافل بحروبهم ومصادر كرمهم وجودهم ، وهى وصف للطبيعة الجافة الجامدة كما ألفها الشاعر ، لا تنبض كثيراً بحياة فى ذاتها وإن أحياها القوم بحروبهم ومروءتهم ونجدتهم وكرمهم .

٣ — وأما معانى المدح وهى أظهر ما فى القصيدة بل أصدق ما فيها إذ توخى الشاعر صفات القوم وشمائلهم، ومعاركهم وحروبهم بلا مبالغة ولا إغراق، وكان صادقا ودقيقا فى وصف السيدين بلا معاظلة أو تزييف ، وأدار آلته التصويرية اللاقطة ليعرض الصورة كما هى فى الواقع ، وكما يراها الناس على حقيقتها وما وراءها من مشاعر إنسانية راقية ، فالشجاعة والمروءة وإغاثة الملهوف ،والنجدة والكرم والجود والحمالة والصلح والعدل والفصل الحكيم كلها صفات للممدوح التى انتهت على أيديهم حرب طاحنة استمرت أكثر من أربعين عاما ، فلم يسرف زهير فى الثناء والمدح بل نقله من الحياة كما هو فى بناء القصيدة الفنى وهذا ما انتهى إليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى نقده الصادق فقال عنه إنه أشعر الشعراء لأنه لا يعاظل فى الكلام ولا يمتدح الرجل إلا بما يكون فيه .

٤ — وأما الحكمة فى شعره فهى حكمة شاعر لا فيلسوف أو عالم فلا ينطقها مجردة من المشاعر غير مأنوسة بين المعانى والأفكار ، بل هى فيض مشاعره مشدودة بمعانى القصيدة محكمة التراكيب فى بنائها وتصويرها الفنى فإذا قال :

وكنت إذا ما جئت يوما لحاجة
مضت وأجمعتْ حاجة الغد ما تخلو

فهو يريد أن المرء لا تنقضى حاجته ما دام حيا وهذا المعنى موصول

بسابقه وهو قوله : « على صير أمر ما يمر وما يخلو » ومرتبط بلاحقه فى البيت الرابع من القصيدة التى معنا ، فالسلوان لا ينسيه البعد بل يزيده ليظل باقيا ما دام الإنسان حيا وإذا قال زهير :

وهل ينبت الخطىّ إلا وشيجه ... وتغرس إلا فى منابتها النخل

فهو يمسكه بمعانى القصيدة ، ليلق بظلاله فى ثراء التصوير الأدبى لها ، فالحكمة جاءت بعد أن أثبت كرم القوم عن أصالة وطبيعة توارثها الأبناء عن الأجداد جيلا بعد جيل ، ليوقع هذا المعنى فى توقيعات موسيقية أشبه بالشعار والخاتم الذى ينهى الرسالة ، ويفصل القول فيها بالحكم الصائب والنظر الثاقب الدقيق ، فالقناة لا تنبت إلا فى موطنها ، والنخيل لا يغرس إلا فى منابته ومواقعه كما أن الكريم لا يفوح عطره إلا من مواطن الكرم ومعادن الجود .

وكان زهير قد اشتهر فى شعره بالحكمة فى العصر الجاهلى ومن أقواله الكثيرة الحكيمة منها :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه ... يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

ومن يجعل المعروف من دون عرضه
يفره ومن لا يتق الشتم يشتم(١)

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله ... على قومه يستغن عنه ويذمم

ومن يجعل المعروف فى غير أهله ... يكن حمده ذما عليه ويندم

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ... وإن يرق أسباب السماء بسلم

فلو كان بد يخلد الناس لم تمت ... ولكن حمد الناس ليس بمخلد

ومن يغترب يحسب عدوا صديقه ... ومن لا يكرم نفسه لا يكرم

---

(١) الخيم : الخلق .

كذلك خِيمهم ولكل قوم إذا مستهم الضراء خيم (١)

ومهما تكن عند امرىء من خليقة
وإن خالها تخفى على الناس تعلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

التصوير الشعرى :

الألفاظ والأساليب من حقل الشاعر فى العصر الجاهلى تتصف بالأصالة والفصاحة ، والصحة ، وسلامة التركيب ، وإحكام النسج ، فترى ألفاظ القصيدة جزلة ، غير وحشية ولا غريبة على أسماع معاصريه من القبائل ، فالجميع يعرف أسماء تلك الأماكن والمواقع والقبائل ، وأدوات الحروب والمعارك ، فهذه الألفاظ وإن كانت غريبة على القارىء وحشية تحتاج منا إلى قواميس اللغة العربية فليست غريبة وحشية على أرباب اللغة ومن عاشوا فى الواقع المحسوس لألفاظها ومفرداتها .

أما الأساليب فى شعر زهير فقد نالت من الإحكام والصقل ما لم يتصف به أسلوب آخر فى عصره وحظيت التراكيب بالتهذيب والتنسيق والتنقيح ما لم تحظ به تراكيب أخرى فى زمنه ، فقد كان بين شعرا عصره من طراز ممتاز خبر صناعة الشعر ، وأحسن أدواته ، فيكون الشعر دقيقا فى صورة وفى ألفاظه وقوالبه وصيغه ، لأنه يخضع شعره لخبرته فى فنه وحنكته فى لغته ، فيطيل النظر ويقلب الأمر ، ويضع هذه مكان تلك ويقدم ويؤخر ويرخم لفظاً ويطيل فى آخر وتظل القصيدة ملء بصره

(١) الخيم : الخلق .

وقلبه وسمعه زمناً طويلا ، حتى تظهر فى أجمل صورة وأبهى زينة . ذكر ابن جنى أنه صنع سبع حوليات أى قصائد تستمر القصيدة تحت يديه حولا كاملا ويقول تلميذه الحطيئة يمدح أستاذه فى صناعة الشعر : خير الشعر الحولى المحكك ، لأنه كما يقول الجاحظ : يردد فيها نظره ، ويجيل فيها عقله ، ويقلب فيها رأيه ، اتهاما لعقله ، وتتبعا على نفسه ، فيجعل عقله زماما على رأيه ، ورأيه عياراً على شعره ، إشفاقا على أدبه ، وإحرازاً لما خوله الله من نعمته ، وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات والمقلدات والمنقحات والمحكمات ، ليصير قائلها فحلا خنذيذا وشاعراً مغلقا . .

وزهير وأضرابه من مدرسة الإحكام والصنعة الشعرية لا يلقون بالا للارتجال ، ولا يعبأون بعطاء القريحة لأول وهلة ، بل يخضعون أنفسهم لفن الشعر واستخدام أدواته من التثقيف والتهذيب والتنقيح والتحبير ، لذلك واتصفوا بأنهم عبيد الشعر فقال : زهير بن أبى سلمى والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر وكذلك كل من جود فى شعره ووقف عند كل بيت قاله ، وأعاد فيه النظر حتى تخرج أبيات القصيدة كلها مستوية فى الجودة .

ورؤية عمر بن الخطاب رضى الله عنه لمذهب شاعر الشعراء دقيقة وثاقبة مع الإيجاز البليغ فى العبارة فهو يرى أن :

١ — المعاظلة فى معناها اللغوى تقتضى من الشاعر أن يدس أنفه فى القول ويتربث فيه ، ولا يطلق العنان لشيطان الشعر ، بل يقف دونه ليعدل فى الكلام ويسوى جوانبه ، ويهذب حواشيه ، حتى يكون مستوياً مقبولا .

٢ — ويتجنب وحشى القول وهو أساس التهذيب والمطاولة وإعادة

النظر فى انتقاء الألفاظ والأساليب ، حتى تكون مما جرت به العادة بين الناس وليس هى فوق المادة أو اعز من الطاقة ، وتلك حلقة ثانية من عدم المعاظلة فى الكلام .

٣ — ولا يمدح الرجل إلا بما فيه ، وهذه أيضا تحتاج من الشاعر إلى الروية والتريث فلا يتبع كل ناعق أو يطير وراء كل هيعة ، ولا ينساق وراء هوى النفس وشهواتها من المبالغة فى الثناء والإغراق فى المدح طمعاً فى الحاجة ورغبة فى العطاء الكثير، فقد تستجيب النفس راغبة فى المبالغة وهى تظن أن العطاء يزداد كلما بلغ فيها أماداً وأباداً ، أما زهير فلم يستجب لهوى النفس ومقتضيات العطاء فهو العاقل الحكيم والحصيف الرزين ، يعطى لكل حال لبوسها ، ولكل مقام ينتقى من الألفاظ والأساليب ما يتفق مع الممدوح بلا مبالغة أو تقصير ، وهو عينه من معانى الإحكام والصقل والتهذيب .

ولا ينبغى أن يتداخل مع العقل أن صنعة زهير قد تحمله إلى التكلف والتصنع ، فهذا مرفوض ، لأن الشاعر موهوب طبعت قريحته على موهبة الشعر لا تتكلف صناعيه ، وإنما يحسن صياغته ، ويجيد التصوير الأدبى ؛ فهو مضطر أن يطابق فى المعنى وهو لا يريد المطابقة فى قوله :

على صير أمر لا يمر ولا يحلو

وإذا أراد أن ينفى الذم عن الممدوحين فهم فوق الموازنة والمجاراة ويرفع التقصير عنهم وعن غيرهم فى احتراس شديد وهو لا يريد « الاحتراس » فيقول :

سعى بعدهم قوم لـكى يدركوهم     فلم يفعلوا ولم يليموا ولم يألوا

وغيرها من ألوان البديع المطبوع مثل :

« وإن أحزنوا سهل »

ومثل « القول والفعل » ، وفى البيت :

« هنالك إن يستخبلوا المـال يخبلوا ... الخ »

وغيرها من التقسيم والتقابل والإيقاع ما يجعل الشعر يقف دونها بلا منازع وكذلك القافية تقع فى مواقعها بلا تكلف أو إكراه بل يقتضيها المعنى ، وتتآخى مع الـكلمات ، وتنسجم مع الصور ، فلا تجد بديلا عن قافية « يحلو » مطلقاً بل هى تفرض نفسها تقول :

« على صير أمر ما يمر وما يحلو »

وإذا ما تحدث عن الميراث ميراث الأبناء عن الآباء كان لابد للفحل من ذكر يرث عنه فى قوله :

إلى معشر لم يورث اللؤم جدهم     أصاغرهم وكل فحـل له نجل

رلا تزل الأقدام إلا بالنعل :

« وذبيان قد زلت بأقدامها النعل »

ولا بد أن يقابل الحزن السهل : « وإن أحزنوا سهل » ، وإنما ينتقل الخير إلى الأبناء من قبل لا من بعد يقول :

وما يك من خير أتوه فإنمـا     توارثه آبا آبائهم قبـل

وإذا ضرب القول مثلا أصبحت الـكلمة فى موقعها ضربة لازب لا تتزحزح ولا تتغير ، وكما يقولون : الأمثال لا تغير ، فضرورة النخل للقافية ضربة لازب ، لا مناص عنها فى قوله :

« وتغرس إلا فى منابتها النخل »

## الصور الخيالية :

إذا ما أردت أن تتحدث عن الصورة الأدبية فى الشعر الجاهلى وعن البراعة فيها فابن بجدتها زهير بن أبى سلمى ، لأنه أعطى لها من وقته وفنه وتهذيبه وتحبيره ما لا يختلف فيه ناقد مع شعراء عصره ، فقد هام الرجل بالتشبيهات والاستعارات وأكثر منها كثرة غير معهودة عند شعراء زمانه . وترا كم ألوان البيان يرجع إلى أن زهيراً تميز عن غيره أيضاً بظاهرة فريدة وهى « ملكة الخيال » التى عمدت إلى هذا اللون والاهتمام به بينما غيره من شعراء عصره لا يخضع لها ، بل تنقاد إليه التشبيهات والاستعارات من حين لآخر قسرا وبقدر ، وبلا اهتمام ولا هيام . وكما يقول الدكتور شوقى ضيف عن زهير : كان الثمرة النهائية للجهود الفنية التى أودعها الجاهليون أشعارهم . . استلم فن التصوير بفرعيه وكأنما تحول عقله إلى آلة لاقطة وهى ليست آلة فوتوغرافية ، بل هى آلة خالقة ، وآلة تفكر فى الأشياء من خلال أشياء أخرى فتعقد ما لا يحصى من مشابهات ومشاكلات وما تلبث أن تتمثل فيما يقع تحت حسها أشباها وأطيافا تتراءى لها واضحة تمام الوضوح(١) .

ومن التشبيها الرائعة عن الحرب فقد شبهها بالناقة العوان والضروس ، بل زاد فى وقت واحد فجعل أنيابها عصلا : فهى صلبة كالخطاف ثم ضمن هذه التشبيهات تشبيهاً رابعاً وهو تضمينه المثل المشهور : « شر أهر

---

(١) العصر الجاهلى : ص ٣٣١ .

ذا ناب » فى قوله : « تهر الناس » ، تشبيهات متراكبة يعقدها خيال مركب فى بيت واحد .

ومرة أخرى يشبه الحرب بالنار وتوقد بالحطب الجزل ، بل يطعمها لا بالحشيش والحطب كما تطعم النار لكن بالسيوف المشرفية والقنا ثم يتراكم عليهما تشبيه ضمنى آخر جاء عن طريق تضمين المثل المشهور : « أحشك وتروثنى » بمعنى أطعمك وتخوننى . . وكذلك يشبه حماة الثغور وكتائبه الكثيرة بالجبال الرواسى وشماريخه المتشعبة التى لا تحركها العواصف فيقول : « بكتيبة كبيضاء حرس فى طوائفها الرجل » .

وهم أيضا أسود كالجن العبقرية ، وشدة البلاء فى الحروب كالدلاء المملوءة ماء ، والقضايا المعضلة كالعقم ، والسنة القحط بالشهباء وبشاشة النفس للكريم كالشفاء .

أما الاستعارة فقد لازمت بعض التشبهات فى بيت واحد بل زادت هى الأخرى كثيراً فالقلب صحا ، وهو لا يسلو ، وأقفر من سلمى ، وحاجة مضت ، وأجمت ، وحاجة ما تخلو ، أحدث النأى ، ما يسلو الفؤاد ، تأوينى ذكر الأحبة ، يعرجنى طفل ، وهكذا الخ القصيدة ، وما أحلى مذاق الكناية حين يقول « وما يمر وما يحلو » ، « طوال الرماح لا ضعاف ولا عزل » ، « قد زلت بأقدامها النعل » وغيرها .

مزازنة ونقد :

يقول زهير :

على مكثريهم حق من يعتريهم وعند المقلين السماحة والبذل

ويقول الأعشى :

تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق

نار الأعشى مشبوبة كالعلم لا تنطفىء ، بل تظل كذلك على قارعة الطريق يقصدها القصاد من فقير وغنى ، وهى نار للإرشاد والتدفئة والطعام والمبيت مع المحلق والكرم فقد بلغ الأعشى بالمحلق الغاية فى التضحية والجود بما سبق كله ، بل يذكر حق الضيافة والكرم مصرحا به وإنما أوحى به التصوير الأدبى البارع لأن الشعر يتجافى مع المنطق والتقرير صراحة .

وليس كذلك زهير بن أبى سلمى فقد جعل حق الضيافة والجود حقا مقررا نطق به صراحة فى الشعر ، وسماحة القوم وكرمهم للمقلين الفقراء لا الأغنياء لا يبيتون معهم ولا يشبون النار . فقوم زهير دون محلق الأعشى فى كل ذلك ومن هنا طار بيت الأعشى وحلق فى سماء الجود والكرم فى أروع مثل يضرب .

ولم يزد زهير كثيراً على البيت السابق فى قوله :

من يلق يوما على علاته هرما يلق السماحة والندى خلقا

فقوله : على علاته مقدما على هرم فى البيت فيه إيهام محتمل بين الضيف والمضيف فقد يكون وصفا لمن يلق هرما وهو لابد وأن يكون فقيراً لا غنيا ، وقد يكون وصفا مقدما لهرم أى من يلق هرما وهو فقير يلق السماحة عنده أيضاً كالشأن فيه وهو غنى ، واحتمال الأمرين أنزل من قدر المعنى فصار هذا البيت أيضاً دون بيت المحلق من هذا الجانب ودونه أيضاً من الجوانب الأخرى التى سبق ذكرها .

يقول زهير :

وما يك من خير أتوه فإنما  توارثه آباء آبائهم قبـــل

ويقول الأعشى :

قبل امرىء طلق اليدين مبارك  ألفى أباه بنجوة فسما لهـا

بلغ زهير الغاية فى مدح قومه لأن الخير الذى ورثوه كله ، وواقع بهم فعلا خير عام يشمل الكرم والسيادة والنجدة والحلم والعلم والحكم الفصل والتعاون وغيرها مما سبق فى الأبيات قبله .

أما الخير عند الأعشى فهو خير محدود بالكرم المبارك فقط ومع أن القوم ورثوه عن آبائهم إلا أنهم دونهم فهم بنجوة يحاولون السمو لهـا ، وربما يصلون أو لا يصلون ، وما أروع الاستمرار فى الحركة والانتقال فى صيغة « توارثه » وما توحى به من الاشتغال والمفاعلة والمشاركة .

يقول زهير :

تداركتما الأحلاف قد ثل عرشها  وذبيان قد زلت بأقدامها النعل

ويقول فى معلقته :

تداركتما عبسا وذبيان بعد ما  تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

بيت القصيدة أدل على الأحلاف ، التى شاركت فى حـــرب داحس والغبراء ، فقد اشتركت قبائل كثيرة منها أسد وغطفان وطيء وفزارة ، بينما بيت المعلقة لا يصور إلا مشاركة القبيلتين : عبس وذبيان فقط ، والشمول فى البيت الأول أدق وأقوى فى التصوير الأدبى الذى يدل على أن الحرب كانت طاحنة عنيفة .

أما الصورة فى الشطر الثانى من المعلقة فهى أقوى تصويرا لبشاعة الحرب وفظاعتها فصيغة المفاعلة والمشاركة من الفريقين تدل على الصراع الذى أفنى كثيرا من الرجال فمن دق منهم عطر « منشم » فقد أسلم نفسه للفناء فى الحرب ، بينما سقوط العرش وضلال العقل إن دل على ذهاب العز فيكون على أى وجه لا على سبيل الفناء كما يدل بيت المعلقة .

وبيت القصيدة ضم كناية قوية رائعة وهى « زلت بأقدامها النعل » إلا أن المثل المضروب وهو أكثر شيوعاً من الكناية هو « دقوا بينهم عطر منشم أشد وقعا وأدق فى التصوير منها .

يقول زهير :

فأصبحتما منها على خير موطن
سبيلكما فيها — وإن أحزنوا — سهل

ويقول فى معلقته :

فأصبحتما منها على خير موطن بعيدين فيها من عقوق ومأثم

والصورتان فيهما توضيح لموقف الحارث وهرم من الحرب ، وأنهما لم يشتركا فيها ، وتحملا المغارم والدماء .

وبيت القصيدة أقوى فى التصوير الأدبى ، فالشاعر وازن بين السيدين وبين غيرهما فى مواقف الخير والسلام فقد سلك غيرهما سبيل الغى والضلال والحرب والدمار .

وأهمل بيت المعلقة هذا المعنى النبيل ، كما أوحى بمعنى آخر وهو أن كلا من القبيلتين عاق وآثم ، فهم ينتسبون إلى جد واحد ، مما يدل على طيشهم وضعف أحلامهم ، وهذا المعنى يمس السيدين مسا رقيقا فى موقفهما من حرب

القبيلتين قبل الصلح الذى جاء متأخرا ؛ لأنهما ينتسبان إليهما أيضاً ، وفى ذلك ما يشبه الذم لهما وهو ما يتنافى مع مقام المدح مما يمزق تلاحم الصورة الأدبية فى الدلالة عليه .

لذلك كان بيت القصيدة أنسب بمقام المدح ، وأدق فى تصوير الموقف السيدين كما أراد الشاعر من المدح .

يقول زهير فى المطلع :

صحا القلب عن سلمى وقد كاد لا يسلو
وأقفر من سلمى التعانيق فالثقل

ويقول فى مطلع آخر :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله
وعرى أفراس الصبا ورواحله

ويقول الأعشى فى المطلع :

صحا القلب عن ذكرى قتيلة بعدما
يكون لها مثل الأسير المكبل

كان زهير فى تصويرة الأدبى لذكريات الحب وأيام الشباب وملاعب اللهو والهوى مع محبوبته كان أدق تصويراً لمشاعره ، وأقرب إلى الواقع الذى يعيشه المحبوب بعد الفراق ومطاولة الأيام ؛ فالحب وإن عفّى عليه الزمن فلا زالت له خطوط تنبض ، وماض لا يمكن أن ينسى ؛ فذكريات الماضى يفترق عنها المحبان لكن يبقى الأثر أو كما يقول زهير : وقد كاد لا يسلو ، وقوله : وأقصر باطله ، فمعنى « أقصر » لا ينفى آثار الماضى بل يقصر منه ويبقى فيه شيئاً أى شىء .

والاستعارتان فى الشطرتين الأخيرتين عند زهير تؤكد هذا المعنى ؛ فديار سلمى خلت والأسباب إليها من أفراس الصبا ورواحله ذهبت ، لكن آثار الحب ما زالت : وستظل ما دام المرء حيا وهما استعارتان رشيقتان كانتا رافدين فى ثراء الصورة الأدبية وجمالها ؛ فكان مطلعا القصيدتين أقوى وأدق من مطلع الأعشى للأمرين السابقين . والتشبيه عند الأعشى أقل فى الدلالة على أثر الحب وذكرياته من الاستعارتين السابقتين عند زهير .

وصورة القلب عند الأعشى قد توحى بأنه لن يعود إلى الذكريات مرة أخرى، ولا يبقى لها أثر كما أن الأسير بعد انعتاقه من قيده لن يعود إليه مرة أخرى ، ولم يذكر الأعشى من الألفاظ ما يدل على بقائه كما ذكر زهير لفظين وهما « لا يسلو » ، « وأقصر » وهما أدى تنصيصا ودلالة من وحى « آثر القيد على الأسير » .

ومن قول زهير فى معلقته :

| | |
|---|---|
| ألا أبلغ الأحلاف عنى رسالة | وذبيان أقسمتم كل مقسم |
| فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم | ليخفى ومهما يكتم الله يعلم |
| يؤخرْ فيوضعْ فى كتاب فيدخر | ليوم الحساب أو يعجلْ فيُنقم |
| وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم | وما هو عنها بالحديث المرجم |
| متى تبعثوها تبعثوها ذميمة | وتضْرَ إذا ضريتموها فتضرم |
| فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم | كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم |

ويقول فى قصيدة أخرى :

| | |
|---|---|
| دع ذا وعد القول فى هرم | خير البداة وسيد الحضر |
| ولنعم حشو الدرع أنت إذا | دعيتْ نزال ولج فى الذعر |

حدب على المولى الضريب إذا نابت عليه نوائب الدهر

ويقول فى الوصف :

تنازعها المها شبها ودر النحور وشاكهت فيها الظباء

فأما ما فويق العقد منها فمن أدماء مرتعها الخلاء

وأما المقلتان فمن مهاة وللدر الملاحة والصفاء

من وحى التصوير الأدبى :

التصوير الأدبى فى قصيدة زهير له مقوماته وعناصره يسمو بالنص إلى درجة التأثير والنفاذ إلى الوجدان : فكما حفلت بما سبق من الخصائص الفنية للألفاظ والأساليب والصور والخيال وغيرها من المقومات ترى الصورة الأدبية ازدادت ثراء وعمقا وجمالا وسحراً بما سرى فيها من الحركة واللون والرائحة والطعم والتشخيص والحياة وغيرها من عناصر التصوير الأدبى ، فتتعاطف مع الشاعر مشفقاً على حزنه ويأسه ومرارة الحب فى أبيات النسيب فتجد من العناصر : بطء الحركة وتثاقل النفس فى كثرة المدات والشدات مما يتناسب مع آهات الحزن وأنات اليأس فى « صحا — يسلى — سنين — كاد ، لا يسلو — للتعانيق فالثقل — ثمانيا على صير أمر ما يمر وما يحلو ، أجمت ، وكل محب ، سلو فؤاد وهكذا » .

ونجد لون الحزن القاتم فى « أقفر — والتعانيق فالثقل — ما يمر وما يحلو ، مضت ، ما تخلو — النأى ، تأوبنى ، هجعت — قلة الحزن فالرمل » وتشعر بطعم مرير ورائحة مفزعة فى هذه الكلمات التى تعتصر بمرارة الحب وخيبة الرجاء .

وهكذا — تلمح عناصر التصوير الأدبي أيضاً في تصويره الحروب التي دارت بين عبس وذبيان ، وفي تصويره لشمائل الممدوحين وعشيرتهما ودورهما في الصلح بين القبيلتين .

وازدادت الصورة الأدبية أيضاً في مقوماتها وعناصرها بوحي الكلمات والأسلوب فيها : فكلمة « صحا » توحي بأن نوبات الخب تجعل الإنسان كالنائم يهيم مع الأحلام والخيال ولا يدري بمن حوله ، وتوحي عبارة « وقد كاد لا يسلو » بالقلق والتردد والحيرة ، وعبارة : ما يمر وما يحلو » باليأس المرير والسراب الخادع ، وكلمة « منى » بالجد والوصول إلى الممدوح لأنه يقسم بالمشاعر المقدسة ، وصيغة « أصاغر » بالعطف والإشفاق ، وكلمة « فزعوا » توحي بالخوف والحذر مع الشجاعة وسرعة النفاذ ، وكلمة « جنة عبقرية » توحي بالمكر والدهاء والنفاذ والتمويه والخداع وكلمة « تخرقها » توحي بصلابة النبال وجودة صناعتها وشجاعة الرامي وتسديد إصابته ، وكلمة « ضروس » توحي بالحروب الطاحنة التي أنهكت القبيلتين ، وكلمة ، « تهر » توحي بالفظاظة والشدة وكلمة « عصل » توحي بأن الحرب أضلت وطالت واستمرت طويلا وأصبحت كناب البعير الذي صلب واعوج لتقادم سنها ، وكلمة « يحشونها » توحي بشناعة الحرب فلم تبق ولم تذر ، وكلمه « العقم » توحي بالحرب التي أنتجت الشر وأمسكت عن الخير ، وعبارة « زلت بأقدامها النعل » توحي بالسقطة وحقارة الغدر الذي اندلعت الحرب بسببه ، وكلمة « الشهباء » توحي بالقحط الشديد فلا نبات ولا وبر ، وعبارة « ينتابها القول والفعل » توحي بأن المجلس كانت ذا شأن لا لهو ولا عبث يتدارس القوم فيها النوائب والملمات الجسيمة مما يقتضى بلاغة القول وعدالة الحكم

والشجاعة والحزم ، وكلمة « توارثه » توحى بدوام المكارم والأمجاد لقوم الممدوحين جيلا بعد جيل بلا انقطاع أو توقف ، وهكذا فى معظم الألفاظ والأساليب التى بعثت الحياة يوحيها وعناصرهما فى التصوير الأدبى عند شاعر التحبير والتنقيح .

## شخصية الشاعر فى القصيدة :

ظهرت شخصية زهير الشعرية فى القصيدة فهو ابن الحى الذى ينتمى إليه ، ووليد الطبيعة التى عاشها بين أخواله الغطفانيين والمريين .

فالسيدان الحارث بن عوف وهرم بن سنان هما من أهله وعشيرته ومن ذوى رحمه وأخواله فهما مريان .

والمواطن التى صورت مشاعره فى القصيدة هى التى عاش فيها ونعم بها مع سلمى وذكرياتها ، ومواطن عشيرته من التعانيق والثقل وقلة الحزن والرمل والمروراة والدارات ونخل ، ومحجر وجزع الحساء وما تميز به الشاعر من الحكمة وحصافة الرأى فهو واضح فى القصيدة فقد أنشدها فى الصلح والخير لا فى الحرب والشر ، بل إنه كاد يقصر مدحه على هذا الجانب وهو الصلح بين القبيلتين عبس وذبيان ، ثم تلك الحكمة والأمثال التى تدل على شخصه وروحه مثل البيت الأخير من القصيدة ، والبيت الذى قبله مباشرة ، كما تضمنت الأمثال مثل قوله : « على صير أمر » ، « ما يمر وما يحلو » ، « تهر الناس » .

وتبدو فى القصيدة أيضا ملامح مدرسته : مدرسة الصنعة والإتقان والإحكام ، فانتقى ألفاظها وصورها وأساليبها وقوافيها وألوان البديع

فيها ، فظهرت فى سمت من الجودة والإحكام وفى صورة من التنقيح والتحبير ، ولذلك سمى النقاد قصائده بالحوليات والمنقحات والمحكمات فلن تجد لقافية البيت غير « وما يحلو » مع أنها طباق ، ولا تصلح غير نخل فى قافيتها مع أنهـا موقع من مواقع بيئته ، وكذلك الأمر فى الرمل ، ونجل ، وعزل ، والنبل ، وعصل ، والجزل ، ونكل ، والنعل ، وسهل والفعل ، والبذل ، والجهل ، والنخل .

وفى الأسلوب والصورة تجد الإحكام وطول التأمل وهندسة الكلمات فى التركيب مثل قوله : على صير ما يمر وما يحلو ، وكل نخل له نجل ، طوال الرماح لا ضعاف ولا عزل ، يحرق فى حافاتها الحطب الجزل ، هم ضربوا عن فرجها بكتيبة ، والبيان : « تداركتما الأحلاف . . . . » ، « فأصبحتما منها . . . . » لا تستطيع أن تبدل مكان لفظ منها بلفظ آخر وإن هتكت هذه الصورة الرائعة من بعده وتبدلت فيها كلمات ومن أى موقع تبدلت ، ستكون الكلمة العوراء التى تدفع احتمال الانتحال على زهير فى شعره .

العاطفة فى القصيدة :

شاع شعر زهير واستقر فى بطون الحفاظ والرواة الذين لم يعرفوا الكتابة والتدوين ، ولم يتخذوها مدرسة فى التعليم والتعلم حتى وصل الشعر إلى عنصر التدوين ، ليصل إلينا نحن المعاصرين . . . فلولا عاطفة زهير القوية الصادقة ما وصل إلينا هذا الشعر ، فالرجل أحب السيدين المربين حباً صادقا ، لأنه قد توفر حب الخير فى تجاربه الشعرية ، وأمسك بتلابيب قلبه ، فحينما يمدح أهل الخير وعشاق

الصلح إنما يمدح بعاطفة صادقة ومشاعر فياضة ، وإحساس رقيق ، وهذا ذاته هو ما دعا بعض النقاد أن يتهموه بفتور فى الغزل والنسيب ؛ لأنه أخلص تجاربه الشعرية الصادقة فيما أحب ، وليس هو حب سلمى الذى اضطربت فيه العاطفة ، حتى أفاق أوكاد لا يسلوا ، فهو حب يجرى على عادة الشعراء ، يستهلون به قصائدهم ليتخذه زهير معبراً إلى الحب الصادق ، وهو حب الممدوحين ، وإن كان فى رأيى أن حبه لسلمى كان حبا صادقا ومازال لكن الرجل كما قلت بلغ منزلة بين قومه فهو شيخ وقور رزين وحصيف حكيم ، ألمت بحياته وهو ضيف بين أخواله محنة داحس والغبراء فاتخذ شعره سلاح سلام للإصلاح بين قومه ، شأن الشيوخ الحكماء ، فأجاد التصوير فى ذلك ، لكنه كان دون ذلك فى التصوير الأدبى الصادق لحب سلمى ، مع صدقه فى عاطفة الحب المكتوم فى صدره فقد ضرب عليه وقار الشيخ ، وخيم فوقه سمت الحكيم المصلح .

ومن مظاهر صدق الشاعر فى عاطفته تطابق الأفكار مع الألفاظ والأساليب كما فى المقدمة ، والتواؤم بين الخيال والصور وبين المعانى ، ومطاوعة الوزن والقافية للمقاصد والغرض ، فتجد الرقة والصبابة فى النسب ، وتجد ألفاظ المدح وصور الحرب وأساليبه فى المدح كالشجاعة والمروءة وترى ذلك فى القصيدة دون المقدمة :

بخيل عليها جنة عبقرية
جديرون يوما أن ينالوا فيستعملوا

عليها أسود ضاريات لبوسهم    سوابغ بيض لا تخرقها النبل

وقوله :

وفيهم مقامات حسان وجوههم     وأندية ينتابهم القول والفعل

وقوله :

وإن جئتهم ألفيت حول بيوتهم

مجالس قد يشفى بأحلامها الجهل

* * *

## الشنفرى

### نسبه وحياته :

الشنفرى من بنى الأواس بن الحجر بن الأزد ، واسمه ثابت . ولقب بالشنفرى لعظم شفتيه ، عاصر شاعرين مشهورين هما تأبط شراً ، وأبو خراش الهذلى وأدرك الأخير الإسلام وأسلم ومات فى خلافة عمر ابن الخطاب رضى الله عنه .

أما حياته فقد اختلف الرواة فى الأسباب التى دفعت الشنفرى إلى قتل مائة رجل من بنى سلامان ، هل ثأراً لأبيه أم ثأرا لوالد زوجته قعسوس ؟ لكنهم يكادون يتفقون على أنه عاش فى بنى سلامان ، وظل بها حتى خرج عليها وتصعلك .

ومن الثابت أيضاً أنه تزوج من قعسوس السلامية ، التى نازعها حتى لطمته على وجهها ، فذهبت غاضبة إلى أبيها وتوجه إلى قتـــله فسمع الشنفرى يقول :

ألا هل أتى فتيان قومى جماعة ... بما لطمت كف الفتاة هجينها

ولو علمت تلك الفتـاة مناسبى ... ونسبتها ظلت تقاصر دونها

إذا ما أروم الود بينى وبينها ... يؤم بياض الوجه منى يمينها

فسأله عن نسبه فقال : أنا الشنفرى أخو الحارث بن ربيعة ، فقال الرجل لولا أنى أخشى قومى لزوجتك إياها فقال الشنفرى لو قتلوك لقتلت بك منهم مائة فتزوجها ، واجتمع القوم على قتله فقتلوه ، فأبرها الشنفرى

فى نفسه وأخذ يصنع النبال ويفوقها بالقرون والعظام ، وجعل يغزوهم واحدا بعد الآخر . حتى قتل تسعة وتسعين رجلا ، ثم أمسكوه وصلبوه وقتلوه وبعد عام مرَّ به رجل منهم فضرب عظم رأسه برجله فأصابته فمات بسببها ، وبهذا المصاب يكون المقتول بسببه مائة رجل من بنى سلامان . لذلك وصفه العرب بالشجاعة والإغارة والصرامة فقالوا : « أعدى من الشنفرى »(١) .

ويعد الشاعر من طائفة الفرسان الصعاليك ومن أشهرهم عروة بن الورد والسليك بن السلكة وتأبط شرا . والصعلوك هو الفقير ثم صار بمعنى الفقير الشجاع الذى يغير على الأغنياء ليطعم الفقراء ، فالصعاليك كان لهم هدف اجتماعى نابع من قحط البيئة التى قست عليهم ومن شح الأغنياء على الفقراء فوجد الشعراء فى الصعلكة ما يقاومون به شدة الحياة وجفافها وحرص الأغنياء وقسوتهم .

وتأثر الشنفرى بالشاعر تأبط شرا ، فشرب من معينه ، واتبع هواه ، ومضى معه إلى الغربة والصعلكة ، ومما أعانه أيضاً على إحساسه بالغربة وهو بين بنى سلامان أنهم لم يرتضوا عن زواجه منهم حتى قتلوا أبا زوجته فاستشاط غضبا وغزاهم ، وأغار عليهم من حين لآخر حتى أبر بوعده وقتل منهم تسعة وتسعين .

وللشنفرى شعر كثير فى الغزل ، والفخر ، والعدو ، والفتك ، وفى

---

(١) مجمع الأمثال : الميدانى ، حماسة أبى تمام ، المفضليات : المفضل الضبى وغيرها .

الحكمة والعفة ، وغيرها من الموضوعات التى تتجاوب أصداؤها مع حياته فى الإغارة والصعلكة .

وفى غزله العفيف يقول :

فيا جارتى وأنت غير مليمة     إذا ذكرت ولا بذات تقلت
لقد أعجبتنى لا سقوطا قناعها     إذا مشت ولا بذات تلفت
تبيت بعيد النور تهدى غبوقها     لجارتها إذا الهدية قلت
تحل بمنجاة من اللوم بيتها     إذا ما بيوت بالمذمة حلت

وفى غزوه يقول :

وكف فتى لم يعرف السلخ قبلها     تجور يداه فى الإهاب وتخرج
ومستبسل ضافى القميص ضممته     بأزرق لا نكس ولا متعوج
عليه نسارى على خوط نبعة     وفوق كعرقوب القطاة مدحرج
وقاربت من كفى ثم نزعتها     بنزع إذا ما استكره النزع محلج
فصاحت بكفى صيحه ثم راجعت     أنين المريض ذى الجراح المشجج

وفى شجاعته يقول :

لا تقبرونى إن قبرم محرم     عليكم ولكن أبشرى أم عامر
إذا احتملوا رأسى وفى الرأس أكثرى
وغودر عند الملتقى ثم سائرى
هنا لا أرجو حياة تسرنى     سجين الليالى مبسلا بالجرائر

وفى عفته يقول :

أديم مطال الجوع حتى أميته     وأضرب عنه الذكر صفحا فأذهل

وأستف ترب الأرض كى لا يرى له
على من الطول امرؤ متطول
ولولا اجتناب الذام لم يبق مشرب يعاش به إلا لدى ومأكل
ولكن نفسا حرة لا تقيم بى على الضيم إلا ريثما أتحول
وأطوى على الخمص الحوايا كما انطوت
خيوطةُ مارى تغار وتفتل
وأغدو على القوت الزهيد كما غدا أذلُّ تهاداه التنائف أطحلُ
غدا طاويا يعارض الريح هافيا يخوت بأذناب الشعاب ويعسل

وفى شعر الحكمة يقول :

دعينى وقولى بعد ما شئت إننى سيغدى بنعشى مرة فأغيب

ويقول :

إن القتيل مضرجا بدموعه مثل القتيل مضرجا بدمائه

ويقول :

وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى
وفيها لمن خاف القلى متعزل
لعمرك ما بالأرض ضيق على امرىء
سرى راهبا أو راغبا وهو يعقل

وفى عدوه يقول :

ولا غيب فى اليحموم غير هزاله على أنه يوم الهياج سمين
وكم من عظيم الخلق عبد موثق حواه وفيه بعد ذاك جنون

ويقول فى شعر المراصد :

ومرقبة عنقـــاء يقصر دونها أخو الضرورة الرجل الحفى المخفف
نميت إلى أعلى ذراها وقد دنا من الليل ملتف الحديقة أسرف
فبت على حد الذراعين محدبا كما ينطوى الأرقش المتقصف
قليل جهازى غـــير نعلين أسحقت
صـــدورهما مخصوفة لا تخصف
وملحفة درس وجـــرد ملاة
إذا انجمت من جانب لا تكفكف

* * *

## لامية العرب

### للشنفرى

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم     فإنى إلى قوم سواكم لأميل
فقد حمت الحاجات والليل مقمر     وشُدت لطياتى مطايا وأرحُل
وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى
وفيها لمن خاف القلى متعزَّل
لعمرك ما بالأرض ضيق على امرىء
سرى راغبا أو راهبا وهو يعقل
ولى دونكم أهلون سِيدٌ عملسٌ     وأرقط زهلول وعرفاء جيأل
هم الرهط لا مستودع السر شائع     لديهم ولا الجانى بما جر يُخذل
وكل أبى باسل غير أننى     إذا عرضت أولى الطرائد أبسل(١)

---

(١) معانى الكلمات : أقام صدر المطية : جد فى الرحيل والمراد صدق النية وسرعة التنفيذ ، أميل : أرغب ، حمت : ظهرت العزيمة وجد صاحبها فى الرحيل ، طيات : نيات ومقاصد ، مطية : ما يركب ، أرحل : جمع رحل وهو ما يوضع على ظهر الدابة ، منأى : بعيد ، القلى : الهجر ، متعزل : مأوى آمن ، سرى : سار ليلا ، سيد : الذئب ، عملس : سريع قوى ، أرقط : النمر لما فيه من خطوط ونقط ، زهلول : ناعم أملس ، جيأل : من أسماء الضبع ، عرفاء : من أسماء الضبع لكثرة الشعر على الرقبة ، الرهط : الجماعة ، الجريرة : الذنب ، يخذل : يهزم ، الأبى : المترفع عن الذل ، باسل : =

يناجى الشاعر قومه ويحثهم على الرحيل فيعدون له الراحلة ، لأنه لم يجد بينهم ما يرضى عنه ويحقق له السعادة ، ولن يتردد فى عزمه ، فهو ماض فى طريقه جاد فى الرحيل هربا من أذى قومه . وهجران عشيرته ، الذين ضاقوا به ، وأقضوا مضجعه ، ليأوى إلى أرض رحبة ، تتسع له ولن يكرهوا قيود الذل بين أهليهم ، ويستريح إلى أقرانه من الصعاليك بين الحيوانات الأليفة فى ترفع عن غدر البشر وجبنهم ، فهم شجعان مغاوير ، يحفظون الأسرار ، ويتجاوبون معه ، وهو يقودهم فى ساحة القتال بجرأة وشجاعة .

وفى هذه المقطوعة يعلن الشاعر عن مذهبه فى الحياة : مذهب العزلة والغربة ، التى تحفظ عليه حريته وكرامته وإباءه ، فيجد هناك أقرانه ، الذين فروا من حياة الذل والضيم والهوان ، فيجدون الأنس بين الحيوان الذى لا يكره الإنسان بل يبادله حبا وحرية وانطلاقا .

* * *

وإن مدت الأيدى إلى الزاد لم أكن
بأعجلهم إذ أجشع الناس أعجل

وما ذاك إلا بسطة عن تفضل ... عليهم وكان الأفضل المتفضل
وإنى كفانى فقد من ليس جازيا ... بحسنى ولا فى قربه متعلل
ثلاثة أصحاب فؤاد مشيع ... وأبيض إصليت وصفراء عيطل
هتوف من الملس الحسان يزينها ... رصائع قد نيطت عليها ومحمل

---

= شجاع ، عرضت : ظهرت ، أولى الطرائد : الطريدة الأولى من الصيد والمراد الفرسان المهاجمون لايهابهم وينتصر عليهم ، أبسل : أقدم فى شجاعة وجرأة .

إذا زل عنها السهم حنت كأنها مرزأة ثكلى ترن وتعول(١)

يصف الشاعر ما يتمتع به الصعاليك — وهو واحد منهم — من الترفع والعفة فى أدب الطعام ، فالشاعر ذو همة عالية ونفس قانعة ، لا يسبق غيره إلى الطعام ، ولا يتعجل إليه شرها وبطنة ، فهو على جانب كبير من الإنفاق والإحسان وقدر عظيم من الاحتشام ، وسلامة الذوق فى أدب الطعام والقناعة والتفضل . كما أنه أيضاً ليس عالة على أصحابه وخلانه ، لا ينتظر منهم عونا ولا تفضلا ، ويكفيه عنهم أصحابه الثلاثة : قلب ثابت الجنان ، وشجاع يملأ حياته أمنا ، وسيف مسلول بتار قد أعده للقتال ، وقوس غالية متينة عزيزة عليه مرصعة بالحلى والجواهر ، إذا انطلقت حنت إلى الدمار والقتل ، وهى ترن بصوت دقيق يشبه حنين الثكلى وعويلها إلى وحيدها الفقيد ، وفى هذه الثلاثة سلوى له عن الأبطال والأعوان فى عزلته عن العشيرة والناس .

* * *

---

(١) الزاد : ما يتزود به من الطعام — بأعجلهم — من التعجل والسرعة والباء زائدة ، أجشع : أشد الحرص ، أعجل القوم : أولهم ، بسطة : سعة ، التفضل : الزيادة فى الإحسان ، جازيا : مجازيا ، حسنى : الصفح والعفو ، متعلل : متلهى يشفيه ، فؤاد مشيع : قلب شجاع ثابت ، أبيض : سيف أبيض ، إصليت : سيف مسلول للقتال ، صفراء : قوس مصنوعة من النبع ، عيطل : صلبة قوية ، الملس : مجلوة قوية ، رصائع : مرصعة بالجوهر ، هتوف : صيغة مبالغة تفيد أنه يحافظ عليها كثيرا ويعتز بها ، نيطت : علقت ، المحمل : الحمالة التى يعلق بها السيف ، زل : انطلقت من القوس ، حنت : الصوت الرقيق العطوف ، مرزأة : مصيبة فادحة ، ثكلى : الأم التى فقدت وحيدها ، ترن : من الرنين وهو الصوت ، وتعول : تبكى .

ولست بمهياف يُعشى سوامه  مجدَّعة سقبانها وهى بُهل
ولا جُبَّأ أكهى مرب بعرسه  يطالعها فى شأنه كيف يفعل
ولا خرقٍ هَيْقٍ كأن فؤاده  يظل المكاء به يعلو ويسفل
ولا خالفٍ داريةٍ متغزلٍ  يروح ويغدو داهنا يتكحل
ولست بعلٍّ شره دون خيره  ألَفّ إذا ما رُعته اهتاج أعزَلُ
ولست بمحيار الظلام إذا انتحت
هدى الهوجل العسِّيف يهماء هوجل
إذا الأمعزُ الصوّان لاقى مناسمى  تطايرَ منه قادِحُ ومُفلل(١)

---

(١) المهياف : من يسرع إليه العطش فيرعى إبله فى الأماكن البعيدة ، يعشى : من العودة فى العشاء أى فى المساء ، سوام : وهى الإبل السائمة التى ترعى السوام أى الحشائش ، مجدعة : ضعيفة من شدة الجوع ، السقبان : جمع سقب وهو ولد الناقة ، بهل : متروكة ضعيفة وهو ولد الناقة ، جبأ : الجبان ، أكهى : قبيح الشيم ، مرب بعرسه : يلازم البيت مع النساء لا يبرح سجنهن ، يطالعها : يستشير النساء ، خرق : مندهش لأتفه الأمور ، هيق : اسم الظليم لطول رقبته والمراد هنا طويل العنق ، المكاء : اسم لطير ، يعلو ويسفل : يرتفع ويهبط ، خالف دارية : متخلف فى منزله ومكانه ، متغزل بالنساء ، يروح مساء : ويغدو صباحا ، داهنا : يتطيب ، يتكحل بالكحل ، العل : الضعيف ، ألف : اضطرب وأخاف ، رعته : أخفته ، اهتاج : ثار وخاف ، أعزل : مجرد من السلاح ، محيار : مبالغة فى الحيرة ، نحت : قصدت ، الهوجل : الطريق الوعر ، العسيف : من يسير على غير هدى ، اليهماء : الصحراء ، الأمعز : مكان صلب به حصى ، الصوان : حجر أملس ، المناسم : جمع منسم وهو القدم أو الخف ، القادح : الشرر ، المفلل : المكسور .

فالشاعر قوى صلب الجسم صبور رحيم لا يسرع إليه الظمأ فهو يرعى إبله القوية فى المواطن النائية التى لا يخشى الظمأ فيها ، ولا يستطيع أحد أن يصل إليها لتأكل إبله وتشبع ، وتضعف سوام الآخرين لأنهم سريعاً ما يظمأون . وليس جباناً يغيب عن ساحات الرجال ليخلو بالنساء فى البيوت ويشاورهن فى أموره ، وليس أحمق يندهش لأتفه الأسباب ، ولا طائشاً مفزوع القلب يطير وراء كل هيعة ويسمع كل ناهق ، بل حصيف ثابت العقل والجنان وليس حبيس البيوت يجالس النساة ويتغزل بهن ويتزين لهن بالطيب والكحل صباح مساء ، بل يجالس الرجال ويهتم بشئونهم . لا بشئون نفسه ومظهرها ، وليس ضعيفاً يستسلم لغيره ولا أعزل فلا يخاف ولا يضطرب ، بل قويا جسورا لا يهاب أحداً ومسلحاً يقاوم عدوه فى رباطة جأش ، وليس جاهلا بدروب الجبال ولا متاهات الصحراء ، ولا بسبل السير ، بل محنكا خبيراً بالجبال والصحراء والسفر ، وليس ضعيفا فى قطع الفيافى والبلاد ، بل صبوراً على قسوة الأرض والصحراء يسرع فى السير غير هياب للمخاطر دون ضعف أو خوف .

وفى هذه الأبيات يصف الشاعر نفسه بصفات الرجل فى الملمات والصحراء فهو صبور رحيم شجاع لا يهاب أحداً ، يخالط الرجال ويتحدى المشتمات وتهون أمامه الصعاب ، على قدر كبير من الحصافة والحنكة وسداد الرأى .

* * *

أديمُ مطالَ الجوع حتى أميتَه     وأضربُ عنه الذكر صفحا فأذهل

وأستف ترب الأرض كى لا يرى له
على من الطول امرؤٌ متطول
ولولا اجتنابُ الذامِ لم يَبقَ مشربٌ
يعـــاش به إلا لدىّ ومأكل
ولكن نفسا حرة لا تقيم بى على الضيم إلا ريثما أتحـــول
وأطوى على الخمص الحوايا كما انطوت
خيوطةُ مارىٍّ تغارُ وتفتـــل
وأغدو على القوت الزهيد كما غدا أزل تهاداه التنائفُ أطحل
غدا طاويا يعارض الريحَ هافيا يخوتُ بأذناب الشعّاب ويُعسل
فلما لواه القوت من حيث أمّهُ دعا ؟ فأجابته نظائرُ نحّل(١)

عفة الشاعر تترفع به عن مذلة السؤال فى أحرج الأوقات ، وهو يعانى ألم الجوع ومرارة المسغبة ، فينسى أحياناً أنه جوعان ، أو يسف تراب الأرض أحياناً ، وهذا خير له من أن تمتد يداه إلى طعام خبيث ،

---

(١) المطال : التأخير ، صفحا : تركا ، أذهل : أغيب وأنسى ، أستف : ابتلع دون تريث ، الطول : الزيادة والفضل ، الذام : العيب ، الحرة : القوية الشكيمة ، الضيم : الذل والضعة ، الخمص : ضمور البطن والوسط ، الحوايا : الأمعاء ، خيوطة : الخيوط ، تغار . تغيب ، تفتل : تجدل وتشد ، الزهيد : القليل ، القوت : الطعام ، أزل : ذئب أزل ، تتهاداه : تتقاذفه ، التنائف : الصحراوات ، أطحل : اللون الداكن المغبر ، طاويا بطنه على الجوع ، هافيا : كثرة الحركة من شدة الجوع ، يخوت : يختلس ، أذناب الشعاب : أواخرها ، يعسل : يمشى سريعاً ، لواه : منعه عن الأماكن الخصبة ، أم : توجه ، نظائر : أشباه من الذئاب ، نحل : مهازيل ضعاف .

وقد تطوى أحشاءه كالخيوط من الجوع القاتل خشية التردى فى مذلة الضيم ، فيجد السعادة فى الطعام القليل يمتصه من عصارة السعى المرير كالذئب الدءوب يضرب فى الأرض بالليل والنهار بحثاً عن زاده ، فتتقاذفه الفلوات نهبا للجوع ، حتى يقع فريسه بين أشباهه من الذئاب المهازيل ، فيستعين بها على رذ جوعته ، فلا يجد مايسد رمقه ، لأنها مثله بل أشد منه جوعا ، وأنكى اختلاساً ومسغبة .

وهذا تصوير أدبى دقيق لما يعانيه الصعاليك — والشاعر من بينهم — من مشقة الحياة وجفافها ، وما يتجرعون فيها من مرارة العيش وقسوة الأغنياء ، فيتعرضون لويلات المخاطرة ، وإنهم ليجدون فى العيش الضامر الحياة الآمنة والسعادة الروحية خير لهم من موائد اللئام الشهية .

* * *

مهلهلةٍ شيبَ الوجوه كأنها ... قِداحٌ بكفى ياسرٍ تتقلقل
أو الخشرم المبعوثُ حثث دَبْرَة ... محابيضُ أرداهنّ سامٍ معسلُ
مُهرتّة فوهٌ كأن شدُوقها ... شقوقُ العصا كالحات وبُسلُ
فضجً وضجّت بالبراح كأنها ... وإياه نوْح فوق علياءَ ثكلُ
وأغضى وأغضت وأتسى وأتست به
أراملُ عَزّاها وعزّته أرمل
وشكا وشكت ثم ارعوى بعد وارعوت
وللصبر إن لم ينفع الشكوُ أجمل
وفاءَ وفاءت بادرات وكلها ... على نكظ مما يكاتم مجملُ(١)

---

(١) مهلهلة : ضامره الجسم ضعيفة البدن ، الشيب : بياض الشعر ، =

شق الصعاليك طريقهم الصعب فى الحياة ، ولم يجدوا فى غير الصعلكة سبيلا للعيش ، فأحبوا من سار على شاكلتهم ولو كان حيواناً ، كأنه واحد منهم يتعاطفون معه ، ويسبرون أغواره ، ويصفون أحواله ، فالشنفرى قد تعاطف مع الحيوانات من حوله فى عيش مرير تجمعهما قسوة البيئة وجفافها ، والذئاب مثله تماما ، لا تجد قوت يومها إلا بالكد ليلا ونهاراً ، حتى أصبحت ضعيفة هزيلة تتحرك هنا وهناك فى سرعة كأنها النحل مع مليكها تطرد من خلاياها للاستيلاء على العسل ، ولسعات الجوع تشد أشداقها وهى فاغرة الفم ، يتردد صداها جزعا فى جنبات الصحراء ، فلا تجد طعاما غير الصراخ مثل بكاء الأرامل والثكالى ، وتعود كما كانت بخيبة الرجاء والمشاركة فى المحنة والبلاد ، فتزداد الصبر على المكاره واحتمال المشقات كالصعاليك فى محنتهم .

* * *

---

= القداح : السهام ، ياسر : ضارب بالسهام ، تتقلقل : تتحرك ، الخشرم : ملك النحل ، المبعوث : الطليق ، حثحث : من الحث والاهتمام ، دبره : جماعة النحل ، محابيض : الأعواد ، رداهن : حركهن ، سام : مرتفع ، معسل : من يخرج العسل من خلايا النحل ، المهرتة : الواسعة ، الفوة : جمع فو وهو الفم ، شدوق : والشدقان جانبا الفم ، الكالح : العابس المكشر ، البسل : جمع باسل وهو قبيح الشكل ، ضج : جزع ، البراح : الواسع ، نوح : النساء الباكيات ، علياء المرتفع من الأرض ، ثكل : جمع ثكلى وهى التى فقدت عزيزاً ، أغضى : أغمض جفنيه ، أنس : اهتدى ، ارعوى : ابتعد عن الضرر ، فاء : عاد، بادرة : سريعة ، نكظ : الشدة ، مجمل : متصف بالجمال والمراد الصبر .

وتشرب أسآر القطا الكدر بعدما سرت قربا أحشاؤها تتصلصل
همتُ وهمّت وابتدرنا وأسدلت وشمر منى فارطٌ متمهل
فوليت عنها وهى تكبو لقعره يباشره منها ذقون وحوصل
كأن وغاها حجزتيه وحوله أضاميم من سفلى القبائل نزل
توافين من شتى إليه فضمها كما ضم أزواد الأصاريم منهل
فعبّت غشاشا ثم مرت كأنها مع الصبح ركب من أحاظة مجفل (١)

يصور الشاعر قدرته على العدو ، ومهارته فى الجرى ، فهو أسرع من القطا إلى ورود الماء حتى شرب قبلها ، وتزاحمت بعده على بقية الماء فى جلبة واصطكاك الأجنحة ، وتتطاول بمناقيرها وحواصلها فتصل إلى قاع المورد ، وتعب منه فلا تجد إلا القليل ، وتعود مسرعة على خوف وحذر ، وهو أسرع أيضاً من الإبل القويه الضامرة إلى ورود الماء ، فلايستطيع

(١) آسار : جمع سؤر وهو ما بقى من ماء ، القطا : أسرع الطيور إلى ورود الماء ، تتصلصل : تحدث صوتاً ، همت : عزمت ، ابتدر : أسرع ، أسدل : أرخى جناحه ، شمر : نشط واجتهد ، الفارط : المسرع ، ولى : ترك ، تكبو : تقع ، قعره : أسفل الماء ، ذقون وحواصل : المراد مناقير الطير وأسفل بطونها ، وغاها : أصوات الطير وما تحدث من جلبة فى تزاحمها حول الماء ، حجزتيه : طرفيه ، أضاميم جماعات مفردها إضامة ، سفلى القبائل : مؤخرة القبائل ، توافين : جاء أحدهم بعد الآخر ، شتى : أنحاء ، أزواد : الإبل التى ترد الماء وتندفع إليه ، الأصاريم : جمع صُرُم وهو القوى الجلد من الأبل ، منهل : تنهل الماء أى ترد عليه ، عب : تابع الشرب بدون انقطاع ، وغشاشا : بعلة ، أحاظة : قبيلة يمنية ، مجفل : أجفل أسرع فى السير .

أحد أن يردها لشدة عطشها ، إنه يرى نفسه فى عدوه أسرع من الطير والحيوان معاً .

وآلف وجه الأرض عند افتراشها ... بأهدأ تُنْبِّيه سناسن قحَّل
وأعدل منحوضاً كأن فصوصه ... كعاب دحاها لاعب فهى مثل
فإن تبتئس بالشنفرى أم قسطل ... لما اغتبطت بالشنفرى قبل أطول
طريد جنايات تياسرن لحمه ... عقيرته لأيهما حُم أول
تبيت إذا ما نام يقظى عيونها ... حثاثاً إلى مكروهة تتغلغل
وإلف هموم ما تزال تعوده ... عياداً كحمى الربع أو هى أثقل
إذا وردت أصدرتها ثم إنها ... تثوب فتأتى من تُحيت ومن عل
فإما ترينى كابنة الرمل ضاحيا ... على رقبة أحفى ولا أتنعل
فإنى لمولى الصبر أجتاب بزه ... على مثل قلب السِّمع والحزم أفعل (١)

(١) آلف : معتاد ، أهدأ : ثابت قوى ، تنبيه : تبعده ، سناسن : أعلى فقرات الظهر ، قحل : يابسات، أعدل : أساوى وأضع ، منحوضا : ذراعا فصوصة : مفاصل عظام الذراع ، كعاب : جمع كعب وهو ملتقى المفصل أو العظم الناشز عنه ، دحاها : بسطها ، مثل منتصبات ، تبتئس : تحزن ، أم قسطل : كناية عن الحرب والقسطل الغبار وسميت بذلك لما يحدث فى الحرب من الغبار ، الغبطة : الفرح ، طريد : منبوذ ، جناية : جريمة ، تياسرن : تقاسمن ، العقيرة : النفس ، حم : قدر ، حثاثا : سراعا ، تتغلل : تتوغل ، إلف : الأليف ، تعوده : تزوره ، حمى الربع : الربع الخالى وحمى الربع شديدة قاتلة ، وردت : أى إلى الماء ، ترجع : تعود . ابنة الرمل : الأفعى ، ضاحيا : ظاهراً ، رقبة : من المراقبة والملاحظة ، أحفى : حافياً ، انتعل : ألبس النعل ، مولى الصبر : يتولى الصبر ، بزه : ثيابه ، السمع : ولد الذئب ، الحزم : صحة النفاذ فى الأمور .

يصور الشاعر صرامته وبسالته فى غربته ، فلا زال شجاعا يفترش الأرض ويلتحف السماء ويتخذ ذراعه وسادة ، وتبعده نواتىء العظام عن ملامسة الأرض ؛ فالحروب التى ابتهجت بانتصارات الشاعر لتحزن عليه بعد أن تخلى عنها فى مهجره بين الفيافى ؛ فهو مشرد تفزعه الجرائم التى ارتكبها ، ولا تفارق خياله ، وتنزف فى وجدانه فيظل شارد اللب منزوع الأمن والراحة ، لا يهدأ بالنهار ، ولا ينام بالليل ، تجوب عيناه أعماق الظلام ، لتتحسس عيون العدو وشماتة الرقيب ، وتغالبه الهموم ؛ وتمسك بتلابيب جسده كالحمى العنيفة بل أشد ، ولا تبرح أن تزايله حتى تعاوده مرات ومرات ، فهو أشبه بالأفعى فى حركته ومراقبته يمشى بغير نعل ؛ فلا تسمع له صوتاً ، ولا يتردد له وقع على الأرض ، يجالد كل هذا فى ثبات وعزيمة فراضت نفسه على الصبر ، وثبت جنانه كالذئب فى رباطته وجأشه .

* * *

وأعدم أحيانا وأغنى إنما ... ينال الغنى ذو البعدة المتبذل

فلا جزع(١) لخلة متكشف ... ولا مرح تحت الغنى أتخيل

ولا تزدهى الأجهال حلمى ولا أرى ... سؤولا بأعقاب الأحاديث أنمل

---

(١) أعدم : افتقر ، أحيانا : أوقاتا ، الغنى : الثراء ، ذو البعدة : ذو الأفق الواسع وهو المغامر فى أعماله ، المتبذل : المهان الذى يضع نفسه فى موضع لا يليق بها ، الجزع : التوجع ، الخلة : بفتح الخاء بمعنى الفقر ، متكشف : فاضح لانفع فيه ، أتخيل : أتكبر من الكبر ، تزدهى : تغرى . حلمى : عقلى ، أعقاب الأحاديث : خواتيمه ، أنمل : نقل الحديث على سبيل الإيقاع والنميمة .

فالشاعر يرى أن الغنى والفقر من عوارض الحياة ، لا يستمران بل يتعاقبان فقد يكون غنياً ، وقد يكون فقيراً ، يكون غنياً بجسده وسعيه لا يصعر خده للناس ، فهو مغامر حينئذ لا يكترث بمصاعب الحياة ، وعقبات الرزق ، ويكون فقيراً فلا يجزع لفقره العارض ولا يستسلم لذل السؤال ، فهو عاقل لا تستخفه جهالات الآخرين ، ومترفع عن الدنايا فلا يمشى بالكذب والوشاية ، ولا يتردى فى الفتنة والإيقاع بين الناس .

* * *

وليلة نحس يصطلى القوس ربها ... وأقطعه اللاتى بها يَتَنَبَّل
دعست على بغش وغطش وصحبتى ... سعار وإرزيز ووجر وأفكل
فأيمت نسوانا وأيتمت إلدة ... وعدت كما أبدأت والليل أليل
فأصبح عنى بالغميصاء جالساً ... فريقان مسئول وآخر يسأل
فقالوا لقد هَرَّت بليلى كلابنا ... فقلت أذئب عس أم عس فرعل
فلم يك إلا نبأة ثم هومت ... فقلنا : قطاة ريع أم ريع أجدل
فإن يك من جن لأبرح طارقا
وإن يك إنساً ماكها الإنس يفعل(١)

---

(١) ليلة نحس : شديدة البرد ، يصطلى : يقاوم البرد ، ربها : صاحبها ، أقطعه : نصل النصل أو القضيب ، والمتنبل : من يعد النبال للرمى ، دعست : من الدعس وهو شدة الوطء على الأرض والمراد شدة الطعن بالنبل فلا ينثنى ، البغش : بغشت النبال إذا أجهشت وأحدثت صوتاً ، الغطش : شدة الظلام ، سعار : حرقة الجوع ، إرزيز : البرد الشديد ، وجر : فزع ، أفكل : رعشة ، أيم : المرأة التى فقدت زوجها فى القتال ، إلدة : الأولاد ، أبدأت : بدأت ، أليل : شديد الظلام ، الغميصاء : مكان بنجد ، الحلس : =

يصور الشنفرى معاناته القاسية للبرد والجوع فى ثبات وعزم ، وهو يتحلى بالصبر ويتجلد بالترويض على رمى النبال وشد الأقواس ، فتركت الغربة بين جوانحه مرارة الأسى ، ولوعة الحسرة والحرمان ، ولا يزال يتذكر قتلاه وهم صرعى بين يديه ، تيتمت أطفالهم ، وترملت نساؤهم ، فاندفع يشن عداوته على مواطن أخرى ، تردد فى جنباتها نباح الكلاب ووقع الناس فى حيرة من أمرهم ، يبحثون عمن أثار فيهم الرعب والفزع ، أهو إنسان أم حيوان مفترس أم طير جارح ؟ وما أن هدأت الأصوات ظنوه جنا أو طارق ليل وكيف يكون كذلك والشأن فيه ألا يثير الرعب ، لا بد أنه فارس شجاع شن حملة رهيبة ، ومضى لا يترك أثراً .

* * *

ويوم من الشعرى يذوبُ لوابُه ... أفاعيهِ من رمضائِه تتململُ

نصبتُ لهُ وجهى ولا كِن دونهُ ... ولا سِترَ إلا الأتحمىُّ المُرَعبَلُ

وضافٍ إذا هبتْ له الريح طيرت ... لبائدَ عن أعطافِهِ ما ترجّل

بعيدٍ بمسّ الدّهنَ والفلى عهدُه ... له عبسٌ عافٍ من الغسل مُحوَّل

وخرْقٍ كظهرِ الترْسِ قفْرٍ قطعتُه

بعاملتين ظهرُه ليس يُعمَل

---

= نجد ، هرت : نبحت ، العس : الدوران بالليل ، والعسس : حراس الليل ، الفرعل : ابن الضبع ، نبأة : صرخة ، هومت : نامت ، ريع : فزع ، أجدل : الصقر ، طارق : من أتى ليلا ، ماك : مص ونقص ورمى وسميت مكة بذلك لأنها تنقص الذنوب والمراد هنا رمى .

فألحقت أولاهُ بأخراهُ مُوفيًا على قُنةٍ أقْعى مرارًا وَأمثُل

ترودُ الأراوىِ الصحْمُ دونى كأنها
عذارى عليهن المُلاءُ المُذيَّل

ويركدن بالآصالِ حولى كأننى
من العُصمِ أدفَى يَنتحِى الكِيحَ أعقلُ(١)

شاعر صلب العود يصبر على الشدائد ، ويواجه الحر اللافح فى جسارة ومطاولة بينما يرى الحيات تتلوى من حوله ، ولا يحميه من لهيبها إلا أستار متهتكة رقيقة وشعر منفوش على أعطافه ، خامر الحول بدون غسل أو دهن، فلا يهتم بمظهره وشكله، وإنما يرى السبيل فى الفتك والغزو ، فهو الطريق الذى مضى فيه ، يتحمل المشقات فى الأراضى الواسعة الصلبة ، والفيافى المخيفة

---

(١) الشعرى : كوكب يواكب الحر الشديد ، لوابه : لعابه ، الرمضاء : الحر الشديد ، تتململ : تهتز، نصبت له وجهى : واجهب الحر الشديد ، كن : فاصل، الأتحمى : صنف من الثياب، المرعبل : المقطع الخفيف. ضافى : فضفاض لبائد : جدائل الشعر على الأعطاف والكتف ، العطف : الجانب ، المرجل : المسرح ، الفلى : التنقية ، العبس : الأقذار الجافة . عاف : غزير الغسل : مايغسل به الرأس ، محول ، مضى عليه حول، خرق . أرض واسعة ، الترس : مايتوقى به المحارب ، عاملتان : رجلاه ، ألحقت أولاه بأخراه : قطعته من البداية للنهاية ، موفيا : مشرفا ، قنة : قمة ، أمثل : أقف ، الإقعاء القعود على الركبتين، ترود : تتعاود ، الأراوى : وهى أناثى الوعول البرية ، الصحم : السواد المشوب بالحمرة ، عذراء : بكر ، الملاء : صنف من الثياب، المذيل الطويل الذيل، يركد: يستقر، الآصال : قبيل الغروب . العصم : الوعل الذى فيه بياض فى ذراعيه أو إحداهما، الأدفى : الوعل الطويل، ينتحى : يقصد ، الكيح : عرض الجبل، أعقل: ممتنع .

الخربة ، والجبال الوعوة ودربها المتشعبة ، يروح فيها ذهابا وإيابا ، يقعى حينا ويمشى أحيانا ، لا يكل ولا يتعب، يأنس إليه الحيوان، فأصبح يعاشره ويبادله الصحبة ، حتى عرف طبائعه وأحواله ، وسبر أغواره ، ويرى فيه صورة من حياته ونفسه ومرآة لحريته وانطلاقه من قيود البشر .

## الغرض من القصيدة :

الشنفرى ينتسب إلى طائفة معينة من الشعراء ، وهم الشعراء الصعاليك فى الأدب الجاهلى ، وهؤلاء تناولوا أغراض الشعر العامة ، لكنهم اهتموا بأغراض معينة ، تصور حياتهم وخروجهم على المجتمع الجاهلى ، وتناولوا موضوعات تستجيب لرغباتهم وتحقيق أهدافهم ، وإذا تناولوا الأغراض تراهم يذهبون بها إلى مذهبهم، ويصبون فيها خواطرهم ونظرتهم الاجتماعية فى الحياة ، وهكذا كان الشنفرى بين الشعراء فى العصر الجاهلى تغلب على شعره موضوعات الصعاليك ويتجه فى أغراضه الشعرية إلى فنونهم وأغراضهم .

تناول الشنفرى فى شعره أغراضا تتردد فى جنباتها مذهبه الاجتماعى فى الحياة من الغربة والصعلكة ، والإغارة والهجرة ، فغلب على شعره موضوعات من أهمها : الفخر - والغرور - والفتك - والغزو - والوصف - والحكمة . أما الغزل عنده فلم يخصص له شعرا ، ولم يتعرض له فى شعره على النحو الذى اشتهر عند غيره ، بل كان يصف الجمال المعنوى فى المرأة ، ويصور أخلاقها الأدبية المحمودة ، فتظهر فى شعره عفيفة محتشمة ، جادة كريمة الخلق ، يخاطبها فى عزة وإباء ، ويتحدث معها حديث الصاحب إلى الصاحب حين يودعه فى أدب جم، لينصرف إلى مطالبه فى الحياة ،فهو يريد أن يستأذن منها لا أن يتغزل فيها يقول :

دعيني وقولي بعد ما شئت إنني    سيُغدَى بنعشي مرة فأغَيَّبُ

فهو جاد في حياته ، لا تشغله النساء ، ولا يقيم بينهن ، يتغزل فيهن ، ويأنس إلى حديثهن كالجبناء ، وإنما ينصرف عنهن إلى مغامراته وغزواته مترفعا شجاعا يقول في قصيدته التي شرحناها .

ولا جبأ أكهى مرب بعرسه    يطالعها في شأنه كيف يفعل
ولا خالف دارية متغزل    يروح ويغدو داهنا يتكحل

فالغزل في القصيدة مشوب بالفخر ، فهو يفتخر بشجاعته ، والفخر هو الغرض الأساسي هنا تدور حوله كل الموضوعات ، فكما رأيت الغزل في البيتين انصرف عنه الشاعر إلى الفخر ، وكذلك في كل الموضوعات التي جاءت فإنها تصور اعتزازه بنفسه ، وافتخاره بشجاعته وغزوه وغربته .

— تجد الشنفرى في مطلع القصيدة يرحل عن عشيرته ، ويفر إلى مهجره ، لأنه يكره الذل ويأبى الضيم .

— ثم يلتقي مع خلانه الصعاليك الذين يفوقون الحيوانات شجاعة وإقداما ، لكي يقودهم في ساحات القتال .

— وهو ذو نفس عفيفة أبية تترفع عن الصغائر ، لا يتعجل أثناء الطعام ، بل يتناوله آخر القوم في عزة وقناعة .

— ويجد في سلاحه أدوات قتاله ما يغنيه عن مساعدة الأبطال له ، بل يجد في قوة قلبه أقوى سلاح يغنيه ويعوضه عن أقرانه .

— وهو لا يظمأ ، صابر رحيم ، وشجاع لا يكترث بالنساء ، وجريء لا يخاف ، ومقدام لا يتخلف عن المكارم ، ويقظ غير غافل ولا أحمق . وخبير لا يجهل الفلوات ولا دروب الجبال ، وسريع العدو لا تعوقه صلابة الأرض وحزونها ولا شعاب الجبال ودروبها .

— ويصبر على الجوع ؛ فينسى أنه جائع ، ويأبى التطفل على الآخرين ولو سف التراب ، أو استحالت أمعاؤه إلى خيوط ضامرة ، حتى يحصل على طعامه بكده وتعبه كالذئب الذى يهفو ويخوت حتى يشبع .

— وهو يعاشر الحيوان ويتعاطف معه ؛ فهو صابر كالذئب ، دءوب كالنحل سريع كالقطا ، ضامر كالأصاريم من الإبل .

— وهو صلب العود شجاع يفـــترش الأرض ويلتحف السماء ، لا تزعزعه الهموم والأحزان التى تأخذ بتلابيب جسده .

— وهو حصيف عاقل لا تبطره النعمة فى غناه ، ولا يجزع حين يفتقر ، فلا يكترث بعوارض الحياة . ولا تستخفه الجهلاء ، ويأبى الغدر والنميمة .

— يتحمل الجوع الشديد . ويقاوم البرد القارس . حتى تدرع بثياب الجلد والصبر .

— قاتل الكثير من قومه وقتلهم ، ولا يزال يشن الحملات الهجومية على أهل نجد . ويثير بينهم الرعب والفزع . ولا يوقف له على أثر .

— فهو أشد من الحية الرمضاء فى مواجهة الحر الشديد وهو يحتمى بثوب رقيق وشعر منفوش يطرحه على كتفيه .

هذه موضوعات القصيدة تجاوبت مع رغبات نفسه ، وتلاحمت مع الغرض الأسمى منها وهو الفخر والاعتزاز بشجاعته وصلابته وعفته .

## منهج القصيدة :

تميزت قصيدة الشنفرى فى منهجها الفنى عما يشيع فى الشعر الجاهلى من منهج معروف استقر عليه معظم الشعراء ، وسارت عليه القصيدة غالبا . وهو تعدد الأغراض الأدبية فى القصيدة الواحدة : من بكاء الديار ، والغزل بالنساء . والوصف ، ثم الغرض الأساسى .

أما قصيدة الشنفرى هنا فقد خرجت على المنهج الفنى ، وسلكت طريقاً آخرى ، ومنهجا فنيا مختلفا عن الذى شاع فى الشعر الجاهلى ، ومنهج الشاعر هنا يقوم على استقلال القصيدة بغرض واحد وهو «الفخر» تدور حوله الموضوعات الكثيرة التى صورها الشاعر فيها ، من المطلع حتى آخر بيت فى وحدة موضوعية ، فكل فكرة فيها تتلاحم من الفخر ، فالرحيل عن القوم لكراهة الذل ، ليلتقى بأقرانه من الشجعان إنساناً وحيواناً ، وهو ذو نفس عفيفة فى رباطة جأش ، مدجج بالسلاح غير أعزل ، وهو صابر رحيم ، جرىء مقدام ، يقظ حصيف ، خبير سريع العدو صلب العود لا تزعزعه الهموم ، يفترش الأرض ويلتحف السماء ، يعاشر الحيوان ويتعاطف معه ، لا تبطره النعمة ، ولا يجزع بالفقر ، يتحمل الجوع الشديد والبرد القارص والحر القاتل ، يشن الإغارة ويسيل الدماء .

وهكذا فى بقية الموضوعات ، تترابط مع الغرض وتتجمع روافدها الكثيرة فى محيط الفخر ، لتصور الشنفرى فى شجاعته وعفته وإبائه .

وقيام القصيدة على غرض الفخر عند الشاعر يرجع إلى أسباب :

منها أنه لا يقيم وزنا للغزل فى الشعر ولا ما يتعلق بالغزل من بكاء الديار كالشأن فى الشعر الجاهلى ، ويسخر شعره فى تصوير مذهبه الاجتماعى وهو الثورة على حرص الأغنياء ، فالشنفرى شاعر صعلوك ، منبوذ عن المجتمع ، يرى فى نفسه أن يكون جاداً للدفاع عن نفسه وأقرانه . ويقتضى هذا أن يكون جاداً فى شعره يعتمد على غرض واحد ، ليكون سلاحا قويا فى الدفاع . ودرعا واقيا لصون حياته وعزته وإبائه ، لذلك

كان لا يهتم بمقدمات الغزل ولا بما يتصل بالغزل من بكاء الديار والتغنى بالأطلال . فالشعراء الصعاليك تراهم قد شغلوا أنفسهم بمذهبهم الاجتماعى وإذا همّ أحدهم بالغزل انصرف عنه لساعته بلا اهتمام به يقول عروة(١) :

ذرينى أطوف فى البـــلاد لعلنى    أخليك أغنيك عن سوء محضر
ذرينى ونفسى أم حسان إننى    بها قبل أن أملك البيع مشترى
أحاديث تبقى والفتى غير خالد    إذا هو أمسى هامة فوق صير

والشنفرى فى تائيته لم يتغزل ، وإنما يصف مشاعره وهو فى غربة غاراته نحو الزوجة الفقيدة التى فارقته وهى لا تعلم من أمره شيئاً ، إنه ذهب ليصل إلى أهدافه من الغزو والإغارة ، يقول فى مطلع تائيته(٢) :

ألا أم عمرو أجمعت فاستقلت    وما ودعت جيرانها إذ تولت
وقد سبقتنا أم عمرو بأمرها    وكانت بأعناق المطى أظلت
بعينىَّ ما أمست فباتت فأصبحت    فقضت أمورا فاستقلت فولت

إلى قوله :

فبتنا كأن البيت حجـّر فوقنا    بريحانة ريحت عشاء وطلّت
بريحانة من بطن حلية نُورِتْ    لها أرجٌ ما حولها غير مسنت
وباصعـة حمر القسى بعثتها    ومن يغز يغنم مرة ويشمَّت
خرجنا من الوادى الذى بين مشعل
وبين الجباهـــات أنشأت سُرْبتى
أمشى على الأرض التى لم تضرنى    لأنكىَ قوماً أو أصادف حُمّتى

---

(١) ديوان عروة بن الورد : ص ١٣ .
(٢) المفضليات : المفضل الضبى ص ١٩٤ .

أمشى على أين الغزاة وبعـــدها يقربنى منهـا روحى وغدوتى

* * *

## الموضوع فى القصيدة :

اشتهرت قصيدة الشنفرى بين النقاد بأنها « لامية العرب » لمـا تحتوى على مكارم الأخلاق ، قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « علموا أولادكم لامية العرب فإنهم تعلمهم مكارم الأخلاق ، واتفق بعض القدماء على أنها للشنفرى منهم البغدادى والتبريزى والأصفهانى ، والعينى . أما ابن دريد فقد شكك فيها ونسبها إلى خلف الأحمر ، وأظنه فى حكمه غير صحيح لشيوع نسبتها إلى الشنفرى منذ العصر الجاهلى ولتوثيقها بالأثر السابق عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ولأنهـا جاءت على مثالها لامية العجم للطغرائى يعارضها فى ألفاظها ومعانيها وأسلوبها وأغراضها يقول الطغرائى (المتوفى عام ٥١٤ هـ) فى مطلعها :

أصالة الرأى صانتنى عن الخطل وحلية الفضل زانتنى لدى العطل

ولأنها تصور الشخصية العربيـة فى العصر الجاهلى من الإباء والعفة والترفع وتصور قسوة الصحراء وجفافها وفاقتها . كما أنهـا سجل حافل للألفاظ الغريبة والوحشية ، التى تغلب على الشعر الجاهلى ، وليست غريبة على أذواقهم ولا على أسماعهم ، وإن كانت غريبة فى العصور الأدبية الأخرى ، ولهذه الأسباب أقبـل عليها الأدباء والنقاد قديماً وحديثاً يشرحونها ، ويهتمون بما فيهـا من طبائع وأخلاق وعادات وأوصاف ، وبما فيها من غريب اللغـة ووصف للحيوان فى الصحراء(١). ولمـا تشتمل بين طياتها على عناصر فى موضوعها من أهمها :

(١) وردت فى الأمالى ١٥٦/١ ، الشعر والشعراء : ٤٩٧ ، =

١ — عن الضيم ، والثورة على الذل والخضوع ، وحب الحرية والدعوة إلى الكرامة والسمو بالنفس الإنسانية ، وإن لم يتحقق هذا إلا عن طريق الهجرة والاغتراب ، فالنفس الأبية تفزع إليه ، وتستظل بجناته الآمنة يقول الشنفرى :

وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى
فيها لمن خاف القِلى متعزل
لعمرك ما بالأرض ضيق على امرىء
سرى راغبا أو راهبا وهو يعقل

٢ — الحرص على الفروسية والشجاعة والإقدام والبسالة التى لم يجدها بين قومه ووجدها مع أقرانه الصعاليك ومع الحيوان فى الصحراء .

٣ — التخلق بآداب الموائد من القناعة والاحتشام ، وسلامة الذوق الأدبى ، فلا يتعجل فى تناول الطعام ، ولا يقبل عليه بشراهة وتفريط ، وهذه الصفات والأخلاق لا توجد إلا فى النفس الأدبية ، التى تعودت على كثرة الإنفاق والإحسان بما يتفضل به على المحتاجين .

٤ — الترغيب فى إعداد القوة ، فلا ينبغى للمرء أن يكون ضعيفا مجردا من السلاح وعليه أيضا أن يتسلح بقوة قلبه وصدق عزيمته .

ثلاثة أصحاب فؤاد مشيع وأبيض إصليت وصفراء عيطل

---

= حماسة أبى تمام ٢٣٤/١ ، العقد الفريد ٣٠٧/٥ ، أغانى الأغانى ٦٠٩ ، الفهرست لابن النديم ، أعجب العجب فى شرح لامية العرب للزمخشرى ، الكامل للمبرد . كما اهتم بها الأدباء المحدثون مثل مصادر الشعر الجاهلى ، الشعراء الصعاليك ، الشنفرى ، الطرائف الأدبية وغيرها .

٥ - التقابل بين الصفات الإنسانية النبيلة للحث على ترسيخ القيم الأخلاقية فى النفوس الأبية ، فينفر من الشراهة والبطنة لينفى عن نفسه الظمأ السريع ، ويثبت العفة وصلابة البدن ، وهو صابر لا يقسو ، وشجاع لا يجبن ، ولا يكترث بالنساء ويخضع لهن بل حصيف أبىّ ، وجرىء لا يخاف ولا ينفعل ، ومقدام لا تخدعه المظاهر من تطيب أو تزيين ، ويقظ حاضر البديهة غير أحمق ولا جاهل ، وخبير بالبيئة ، وعالم بالصحارى غير تابع ولا غر ، وسريع العدو غير هياب ولا خائف لأنه قوى الجسم ، وصلب العود ، ومعتدل القامة :

٦ - يعتصم بالصبر على الجوع الشديد فهو « عصامى » ينسى أنه جائع يفضل أن يسف التراب على موائد المتصدقين الشهية ، وخير الطعام عنده ما كان عن جهد وتعب ، فالذئاب الهزيلة التى افترسها الجوع ، تأبى التطفل وتسعى وتكد كالنحل ، حتى ترد الجوع فى عزة وإباء .

٧ - الهموم تنتابه بالليل والنهار لا تبرح عنه لشعوره بالذنب ، فهو طريد الجريمة ضد بنى الإنسان ، يعيش معذبا ومشرداً ، وهو بهذا ينفر من القتل ويحذر من الجريمة .

٨ - ويعالج الهموم والأحزان والإحساس بالذنب لا بالاستسلام والضعف ولكن بالصبر والمراجعة ، فهو الدواء الناجع لهمومه : والسلوك الأخلاقى لرد أحزانه وذنوبه .

فإنى لمولى الصبر أجتاب بزه
على مثل قلب السِّمع والحزم أفعل

٩ - ينفر من الترهل والترف والإسراف فى النعيم ، لأنه يفترش

الأرض ويلتحف السماء ، ويتوسد بذراعيه ، ليظل الإنسان شجاعا قويا وجافا صلبا يقوى على أحداث الزمان ويقاوم خطوبها الجسام .

١٠ — يدعو إلى الحصافة والعقل ، فهو لا تخدعه عوارض الدنيا من الثراء والفقر ، ولا تبطره النعمة ، ولا يجزع من الفقر .

١١ — ينفر من الحمق ، وليس من طبعه أن يمشى بالنميمة والإيقاع بين الناس .

١٢ — أما غاراته على الآمنين وإثارة الرعب بينهم فنزعة اجتماعية لجأ إليها الصعاليك أمام الظروف القاسية ، التى يعانيها الفقراء وهم بين إخوانهم الأغنياء فى الحب لذاتهم ، والحرص الشديد على أموالهم ، بلا رحمة أو عطف أو تعاون ، وجاء الإسلام ليعطى كل ذى حق حقه فى عزة وإباء ومشاعر إنسانية رفيعة .

١٣ — يعود إلى الترغيب فى الصبر مرات ومرات ، وخاصة إذا قست الطبيعة فى حرها الشديد ، ويردها اللاذع ، واجتياز الصحارى والشعاب والجبال .

## خصائص الموضوع :

كانت عناصر الموضوع فى القصيدة متعددة الأفكار ، ومتشعبة المعانى تنبع من شخصية عربية تعيش فى العصر الجاهلى ، التى كانت له قيمه وأخلاقه ، كما كانت له مثالبه وسيئاته ، أجاد الشنفرى التعبير عنها فى لامية العرب ، ومن أهم سمات المعانى وخصائص الموضوع :

١ — من معانى القصيدة ما يصور الدعوة إلى الاغتراب والثورة على حرص الأغنياء والانتقام منهم فى غارات يشنها الصعاليك(١) لإطعام

---

(١) الصعلوك هو الفقير ، وتصعلك افتقر يقول حاتم الطائى : =

الفقراء والإحسان إليهم ، فالدعوة هنا ثورة إجتماعية على الحرص المدمر في الإنسان الجاهلي :

٢ — تكشف الأفكار عن ظاهرة خطيرة فى العصر الجاهلى ، لاتقرها أعراف العرب ، وتتنكرلها عاداتهم وتقاليدهم : وهى الخروج على القبيلة، والتحرر من ربقة العبودية القبيلة ، والانطلاق من العصبية المتزمتة .

٣ — طوع الشاعر المعانى الكبيرة للغرض منها ، وهو الفخر ، فاستجابت له لتدور حول موضوعه ، وسارت فى فلكه بلا تناقض ، فوصف الحيوانات ليرى من صفاتها فى نفسه الصبرعلى الجوع والدأب فى تحصيل الطعام ، ووصف الحيات ليرى فى نفسه جفاف العودة والقدرةعلى تحمل الحر القاتل، ووصف الصحراء ليدل على خبرته وعلمه ، وسرعته فى العدو ، ورشاقته فى رياضة الشعاب والصحارى وهكذا .

٤ — اتصفت الأفكار فى القصيدة بالسلوك الأخلاقى النبيل غالباً على الرغم من أنها صدرت من شاعر فى العصر الجاهلى ، وهذا يدل على أن العرب كانت لهم قيم أخلاقية عالية ، وسلوك إنسانى رفيع ، لتكون إرهاصاً لقيم التشريع الإسلامى وتمهيداً لسرعة انتشار الخلق السماوى المنزل على سيد الخلق سيدنا محمد ﷺ .

٥ — الوحدة الموضوعية فى القصيدة ، وهى من الخصائص الفنية النادرة فى الموضوع قلما نجدها فى القصيدة الجاهلية التى استقرت على منهج

---

= غنينا زماناً بالتصعلك والغنى   فكلا سقانا بكأسيهما الدهر

ثم صار بعدذلك من معانى الصعلكة الشجاعة والمغامرة اكتسبها اللفظ مما اتصف به الصعاليك من صفات الشجاعة والاقدام والمغامرة والإغارة

فى متبع ، لايخرج عنه الشاعر إلا نادراً ، وهو تعدد الموضوعات وقيامها على أكثر من غرض كالغزل والنسيب، وبكاء الديار والوصف ثم الغرض الأساسى من القصيدة كالفخر أو المدح أو الاعتذار .

أما الشنفرى هنا فقد خرج على هذا التقليد ، لتقوم قصيدته على موضوع واحد وهو الفخر ، وهو من مطلعها إلى آخر بيت فيها ، فإذا نظرت إلى معانيها الثلاثة عشر فى عناصر الموضوع السابقة لأيقنت أنها تدور حول الغرض ، وتمتد إليه بروافدها المتشعبة فى تلاحم وترابط بالغرض العام ، وإن كانت هذه المعانى لا تخلو من مآخذ كالتكرار فى تصوير الصبر حين عاوده أكثر من مرة وإن اختلفت بواعثه ، لكن الأولى أن يلم بأطرافه فى أبيات يتلاحق بعضها ببعض فى اتصال وترابط ويأبى الشاعر إلا أن يسير على النمط الجاهلى من استقلال البيت بمعناه ومفرده عما قبله وبعده من الأبيات ، بحيث يصح البيت فى أى موقع من القصيدة ، فالشعراء الجاهليون لا يعنيهم ظاهرة تداعى معانى القصيدة فى هيكل عضوى متناسق الأجزاء على غرار الدعوة التى ينشدها النقاد فى الشعر العربى الحديث .

٦ — أبيات الحكمة فى القصيدة سالت بين معانى الفخر كما يسيل الماء العذب الزلال ، أو كما يذوب الطل الندى بحبات اللؤلؤ على أزاهير الرياض، فتعبق الحياة بأريجها وعطرها ، فقد تتابعت الحكم من أول قوله:

أديم مطال الجوع حتى أميته ... وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل

إلى قوله :

وأغدو على القوت الزهيد كما غدا ... أذل تهاداه التنائف أطحل

وغيرها من حكم وردت فى القصيدة .

## العاطفة فى القصيدة :

وعاطفة الشنفرى فى تجربته الشعورية فى القصيدة تعبر عن تجربة ذاتية للشاعر ذاته ، فهو لا يمدح شخصاً آخر « أو يتغزل فى امرأة أعجبته أو يعتذر لمن أساء إليه أو يرثى شخصاً مضى مع الخالدين . ليس الشاعر واحداً من هؤلاء وإنما يصور ذاته ، ويسبر أعماق نفسه ، بلا تمويه أو خداع ، ويصور مشاعره وأحاسيسه التى يعتصرها من طبيعته وسجيته بلا تدليس أو نفاق . وهل نجد أولا : عاطفة أقوى وأصدق من عاطفة الشنفرى المطرود المنبوذ من عشيرته وأهله ، والغريب فى مجتمعه ، فيهتز لكل هامسة ولامسة من نفسه ؛ فيوقدها بوجدانه ويعبر عنها بصدق فى قصيدته لتكون أمضى سلاح يدفع به عن نفسه ؛ فيفخر الشاعر على قومه بشيم لا ترد ولا تنقض ، وإلا تمزقت أشلاؤه ونال منه الذين طاردوه ونابذوه . فهو شجاع حصيف صبور خبير عالم رياضى ، يألف الأحرار ويتعاطف مع الحيوان وعفيف جاد مغوار رابط الجأش لا ينال منه الإنسان ولا يقوى عليه الحيوان ، ومثل هذه الخصال إن لم يكن الشاعر صادقا مع نفسه فيها لا يقوى على الثبات وهو وحيد أمام قومه وعشيرته .

وهل نجد ثانياً عاطفة أصدق وأقوى من عاطفة الشنفرى وهو فى مهجره واغترابه ، فيحن إلى الشخصية المثالية التى ينشدها فى الحياة ويهفو إلى النموذج الإنسانى الرفيع فى قيمه الأخلاقية التى يعتز بها ، إنه يحن ويهفو إلى هذه الشيم فيجدها أحياناً بين أحشائه وفى شخصه مفتخراً بها ، وتنعكس صورتها على شخصه من أقرانه الصعاليك الذى يألفهم ويحبهم ، أو يجدها

فى الحيوان والطير الذى يشق طريقه فى الحياة فى عصامية وحرية وانطلاق، أو يجدها فى الصحراء والجبال وقسوة الحر والبرد والسير فيها فيقوى بها على مواجهة الشدائد فى الحياة، ويصير صلباً قوياً شديد البأس يخشاه الآخرون، كل ذلك من ذاته يصوره بصدق فى القصيدة . . . إنها العاطفة الصادقة .

التصوير الشعرى :

الألفاظ والأساليب : هذه القصيدة حقل خصب من ألفاظ اللغة العربية الغريبة التى تحتاج من الباحث أن يفتش عن معناها فى معاجم اللغة العربية وعن مشتقاتها أو مفرداتها وجموعها فيقول :

ولى دونكم أهلون سيد عملس وأرقط زهلول وعرفاء جيأل

وترى الغموض فى هذه الألفاظ وفى كثير غيرها مثل : « أبيض إصليت وصفراء عيطل — ولست بمهياف يعشى سوامه — جدعة سقبانها وهى بهل — ولا جبأ أكهى مرب بعرسه — خرق هيق — الأمعز الصوان لاقى مناسمى — الخشرم — حثحث دبره — محابيض سام معسل — مهرته — أتسى — تكظ — تتصلصل — وغاها — أضاميم — أحاظة مجفل — سناسن قحل — وأعدل منحوضا — كأن فصوصه — كعاب — دحاها لاعب . . وهكذا إلى أن يقول فى آخر القصيدة :

ترود الأراوى الصحم حولى كأنها
عذارى عليهن الملاء المذيل
ويركدن بالآصال حولى كأننى
من العصم أدفى ينتحى الكيح أعقل

ويترتب على ذلك أن يكون الأسلوب غامضا ، وتركيب الجملة غير واضح لأول وهلة فيحتاج القارىء إلى أن يمعن نظره ، ويتأمل القول حتى يقف على المعنى ويصل إلى المراد . لهذا حظيت اللامية — بالعناية والشرح والتفسير من الأدباء ، حتى زادت شروحها على اكثر من عشرين شرحا ؛ لتوضيح غرائب الألفاظ والأساليب ، ومعالم الحياة العربية فى العصر الجاهلى ، ورصد مظاهر الصعلكة وحياة الصعاليك ، ولا تعجب من أن يسميها جار الله الزمخشرى « أعجب العجب فى شرح لامية العرب » ومن منا لا يطيل النظر والتأمل حتى يقف على المعنى فى قوله :

« أقيموا بنى أمى صدور مطيكم — فقد حمت الحاجات والليل مقمر — ولا الجانى بما جر يخذل — هتوف من الملس الحسان يزينها — رصائع قد نيطت عليها ومحمل — ولا خالف دارية متغزل — وفى قوله :

ولست بعل شره دون خيره ألف إذا ما رعته اهتاج أعزل
ولست بمحيار الظلام إذا انحت
هدى الهوجل العسيف يهماء هوجل
إذا الأمعز الصوان لاقى مناسمى تطاير منه قادح ومفلل

وهكذا إلى آخر القصيدة فى بنية أعرابية وحشية كما يقول الرواة والنقاد ، التى أقفرت منها مجالات الدراسة الحديثة فى معاهد العلم وجامعاته، مما يعد جحوداً بها ونكرانا لأداء رسالتها فى تصوير الحياة العربية ، وفى تاريخ اللغة وآدابها ، ولكى تظل لغتنا السهلة الحديثة على اتصال بحقلها الخصيب بالغريب ، فتزول عنها غرابته بالاستعمال والمعاودة فى الكتابة ، كما كانت هذه الألفاظ عند قائلها ومستمعيها ليست غريبة لكثرة تعاملهم بها فى حياتهم ، وإذا تدافع الكتاب والدارسون على الألفاظ القريبة

والأساليب الدائية فى كل مجالاتنا الدراسية والأدبية لأصبحت مثل قصيدة الشنفرى طلاسم وألغاز يتندر بها المتندرون ، ويهزأ بها المستهزئون، وهذا هو التعسف البغيض بأصالة اللغة ، والافتراء فى البهتان بعراقتها وروافدها العميقة الخصبة ، وما زالت معاهد الغرب وجامعاته على الرغم من تعدد لغاتها من إنجليزية وفرنسية وألمانية وإيطالية مازالت تهتم باللاتينيه القديمة، تحافظ على دراستها ولغتها وأدبها ، وتجند فيها المتخصصين الذين يحفظونها بأمانة لتصل إلى الأجيال من بعدهم .

ومن أهم الأسباب التى حملت الشنفرى إلى التكثر من غريب اللغة فى اللامية وغيرها من شعره هى الغربة التى يعانيها الصعلوك بين قومه ، فيقول الشعر ليعبر به عن مشاعره المغتربة ، وليصور غربته فى مهجره ، ولا يقول شعرا يمدح به آخرين تتلاحق المعانى الواضحة إلى عقولهم وقلوبهم فى ألفاظ مأنوسة قريبة .

والغربة أيضا تقتضيه أن يعبر عما حوله من ألفاظ المواطن والبلاد والمواقع والجبال والطيور والحيوانات وأحوالها وصفاتها وأسرارها ، وطباعها وأخلاقها وعاداتها . فالشنفرى حين يصور مشاعره المغتربة من غرائب الأسرار فى الحيوان وصفاته وطبائعه بين الشعاب والفلوات يصورها بألفاظ تتناسب معها فيقول :

وأغدو على القوت الزهيد كما غدا ... أذل تهاداه التنائف أطحل
غدا طاويا يعارض الريح هافيا ... يخوت بأذناب الشعاب ويعسل
فلما لواه القوت من حيث أمه ... دعا فأجابته نظائر نحل
مهلهلة شيب الوجوه كأنها ... قداح بكفى ياسر تقلقل
أو الخشرم المبعوث حثحث دبره ... محابيض رداهن سام معسل

مهـــرته فوه كأن شدوقها    شقوق العصا كالحات وبسل

ولا زالت الصورة الحقيقية لم تكتمل إلا إذا استوفيتها فيما بعد ذلك من أبيات فى القصيدة فى استيعاب ودقه فى الوقوف على أسرار الطبيعة والحيوان وطبائعه على الإنسان .

والبحر الطويل هنا فى القصيدة من أنسب الأوزان التى تتوام مع مشاعر الشنفرى المغتربة التى تحتاج إلى طول نفس وأوزان متتابعة وممتدة، تتيح له التأمل فى فهم الأسرار ،، وإطالة النظر فى الوقوف على الطبائع والعادات ، وهذا التأمل وطول النظر يتناسب مع كثرة التفاعيل والأوزان فى البحر الطويل ، ويتناسب أيضاً مع أثقال القافية الناشىء من شدة الوقع فى أصوات الحروف وحركاتها وثقل مخارجها ، مثل حروف الحلق والقاف والثاء والواو والضاد وغيرها من الحروف الثقيلة ، وكذلك الضمات والشدات كلها تتعاون فى شدة الصوت وثقله وهو ما تراه فى القافية مثل : « وأرحل ، متعزل ، يعقل ، جيأل — المتفضل متعلل — عيطل — محمل — تعول بهل — يتكحل — هوجل — مغلل — متطول — أنحول — تفتل — أطحل » . وغيرها حتى نهاية القصيدة .

الصور الخيالية : إذا ما وقفت على معانى الألفاظ والأبيات رأيت خيال الشاعر قريبا مألوفا ليس فيه مبالغة ولا إغراقا ، ولا تعقيداً وإسرافاً ، ومن التشبيهات البليغة قوله : « كأنها مرزأة — كأن شدوقها شقوق العصى — كأنها وإياه نوح — كأنها مع الصبح ركب من أحاظة مجفل — وإلف هموم كحمى الربع — فإما ترينى كابنة الرمل — والتشبيه بالقطاة والصقر والجن فى قوله : « قطاة أم ربع أجدل ، فإن يك من — وخرق كظهر الترس كأنها عذارى » .

ومن التشبيه التمثيلي قوله :

ولا خرق هيق كأن فؤاده      يظل به المكاء يعلو ويسفل

وقوله :

كأن وغاها حجزتيه وحوله      أضاميم من سفلى القبائل نزل

وقوله :

وأعدل منحوضا كأن فصوصه      كعاب دحاها لاعب فهى مثل

ومن التشبيه الضمنى قوله :

ولست بمهياف يعشى سوامه      مجدعة سقبانها وهى بهـــل

وقوله :

ولا جبأ أكهى مرب بعرسه      يطالعها فى شأنه كيف يفعل

ومن الاستعارات الرائعة قوله : دحمت الحاجات — وشدت لطياتى — إذا زل عنها السهم حنت — ترن وتعول — كما انطوت خيوطه — أحشاؤها تتصلصل تبتئس أم قسطل — يذوب لوابه — تتململ .

ومن الكنايات اللطيفة على أنه يقظ وليس بأحمق قوله :

ولست بعل شره دون خيره      ألف إذا ما رعته اهتاج أعزل

وأنه بصير بالدروب والشعاب والفلوات فى قوله :

ولست بمحيار الظـــلام إذا نحت

هدى الهوجل العسيف يهماء هوجل

أديم مطال الجـــوع حتى أميته

وأضرب عنه الذكر صفحا فأذهل

فإنى لمولى الصـــبر أجتاب بزه

على مثل قلب السمع والحزم أفعل

والكناية عن التعفف والترفع فى قوله :

وأستف ترب الأرض كى لا يرى له
على من الطول امرؤ متطـــول

والكناية عن الحزن والهم فى قوله :

تبيتت إذا ما نام يقظى عيونها حثاثا إلى مكروهة تتغلغل

هذه بعض الصور الجزئية فى الدالية .

والشنفرى يصور ما يدور بين الذئاب من حوار حول البحث عن الطعام ودأب فى الحرص عليه، وسعى حثيث فى الحصول ، وما يتبع ذلك من يأس أو رجاء ، كالشأن فيما يعانيه الشاعر من ألم الجوع والمشقة .

يصور الشاعر هذه الحركة الدائبة والحوار العاقل للذئاب فى تشخيص رائع وصورة كلية تمثل لوحة فنيه متناسقة الألوان يقول :

وأطوى على الخمص الحوايا كما انطوت
خيوطـه مارىٌ تغـاو وتفتـــل

وأغدو على القوت الزهيد كما غدا أذل تهـاداه التنائف أطحل
غدا طاويا يعارض الريح هافيا يخوت بأذناب الشعاب ويعسل
فلما لواه القوت من حيث أمه دعا فأجابتـه نظائر نحـل

ويصور الشاعر فى تشخيص حى متحرك الريح وهى تعبث بشعره المنفوش فيتطاير من حوله وهو يتقصف من طول عهده فى البعد عن الغسل ومس الدهن،فيحول الريح دون الشعر المتطاير فى ستر جسده ، فلا يقيه من حرارة الشمس ، وكأن الشياب الرقيقة المتهتكة، والرياح الساخنة العابثة، والشعر المنفوش المتطاير تتعاون جميعها على تعريض الشنفرى للحر الشديد

فى أيام الشعرى التى يجف فيها اللعاب ، وتتململ فيها الأفاعى ، إنه تشخيص قوى متحرك يحمل من الريح والشعر والثياب والحيات أناسى تتعاون وتتحامل عليه وهو صابر متجلد يتحمل الحر الشديد ، وذلك فى صورة كلية ترحى بكل هذه المعانى والمشاعر يقول :

ويوم من الشعرى يذوب لوابه أفاعيه من رمضائه تتململ
نصبت له وجهى ولكن دونه ولا ستر إلا الأتحمى المرعبل
وضاف إذا هبت له الريح طيرت لبائد عن أعطافه ما ترجل
بعيد بمس الدهن والفلى عهده له عبس عاف من الغسل محول

ومن الصور الكلية الرائعة التى تصور شعوراً واحداً وهو تحمل الجوع والصبر عليه فى دأب وتعفف من خلال صور جزئية تعاقبت وتتابعت فى إبراز المعنى وتجسيمه ، فالشاعر يميت الجوع ، ويضرب عنه الذكر صفحا ، وينساه ويأكل التراب حتى لايتطاول عليه حقير أوحريص ويجتنب المطاعم والمشارب . الناعمة التى تلحق به العار ، لأنه يحمل نفساً عزيزة لاتقبل الضيم، ويطوى بطنه على الجوع حتى تصير الأمعاء كالخيوط المجدولة ، ويقتاد بالذئب الصابر الدءوب تتقاذفه الصحارى والجبال، يختاس تارة ويسرع أخرى ، ويتعاون مع غيره من الذئاب فى الحصول على القوت ، كما يتعاون الشنفرى مع أقرانه الصعاليك فى الغارات .إنها صورة كلية متلاحمة الأجزاء ، لا تستطيع أن تفصل معنى عن معنى ، ولاأن تفتت تشبيها أو استعارة بالحديث عن وحيها منفصلة ، وإلا مزقت هذا التلاحم الفنى والانسجام بين الصور والمعانى ، التى تعبر فى صدق فنى رائع عن إحساس الشنفرى بألم الجوع ومرارته من أول قوله :

أديم مطال الجوع حتى أميته وأضرب عنه الذكر صفحا فأذهل

إلى قوله :

فلما لواه القوت من حيث أمه  دعا فأجابته نظائر نحل

من وحى التصوير الأدبى :

إذا دبت العاطفة تلف المشاعر بحمأتها ولهيبها تحركت المشاعر فى الألفاظ والصور . ونيطت بها الأساليب فى حيوية وحركة فترى اللفظ يشع بمعان متعددة ويفيض الأسلوب عن عطاء متنوع ، وتغنى الصور بعناصرها المتدفقة من الحركة واللون والحجم والشكل، والطعم والرائحة، فيقول الشاعر : « همت الحاجات » بمعنى ظهرت النوايا ؛ وليس هو المراد فحسب ، ولكن الشاعر أحيا فى اللفظ إيحاءات تعبرعن عاطفته ومشاعره منها أنه ضاق بقومه واشتد به الضيق كما تشتد الحمى بالجسد ، وأن النية تحولت إلى عزيمة ورحيل دفعه إلى القيام بالرحلة فعلا وأن هذا قدر تهيأت له أسباب الرحيل ، وقوله « يخذل » مبنيا للمجهول لا يدل على عدم الانتصار فحسب بل يوحى بأن الحيوان أمين غير خائن ووفى لصاحبه غير غادر، لايعتدى بنفسه ويحافظ عليه من نظائره ، ويذود عنه بنى الإنسان .

وفى قوله : « حنت كأنها مرزأة ثكلى ترن وتعول » فليس المعنى أن السهام تصيب الهدف فحسب ، بل توحى بصورة أدبية تثرى بالمعانى والمشاعر ، فالسهام ظمأى تحن إلى الدماء وتهدأ فى المحن والمصائب التى تلازمها كما يلازم الحزن الشكلى وتحدث صوتا قويا يرن فى الفضاء لقوة رميها ومضائها وليونة معدنها فلا تتقصف ، واحتكاكها بالريح فتصرخ وتولول ، وكأنها تبكى قتلاها على الصرعى كما تبكى الشكلى وتصرخ على وحيدها .

وفى قوله : « مرب بعرسه » ليس المعنى الإقامة فى البيت فحسب ، ولكنه يفيض بإيحاءات تدل على أكثر من ذلك ، تدل على أنه جليس النساء لا الرجال يشرفن عليه ويربينه وتوجهنه ويخضع لمشورتهن فى ذلة وانكسار فهو لا يعرف من أمره شيئا ، وإنما ينتظر منهن الأمر والنهى ، حتى ما يخصه وشأنه لا يدرك فيه شيئا بل يطالع فيهن التوجيه له والتنفيذ بأمرهن .

وهكذا تجد كثيراً من الألفاظ والأساليب والصور توحى بالمعانى والأفكار وتشع بالأضواء والظلال مثل :

« خرق هيق — متغزل — داهنا يتكحل — بعل — ألف — اهتاج — بحيار — الظلام — لاقى مناسمى — تطاير قادح ومفلل — أميته — فأذهل — تقيم على الضيم — أطوى الخمص — انطوت خيوطه مارى — يعارض الريح — يخوت ويعسل — لواه القوت — تتقلقل — حثحث دبره — رداهن سام معسل » إلى آخر القصيدة .

أما عناصر التصوير الأدبى ، فالحركة تكون فى معنى الفعل «يعلو ويسفل» من العلو والسقوط ، وفى صيغته من معانى الحال والاستقبال المتجدد دائما فى معنى المضارعة ، ومثل ذلك قوله « يروح ويغدو » ، وكذلك الحركة العنيفة التى توحى بها المفاعلة والمطاوعة فى قوله : « بحيار الظلام » وفى قوله : «لاقى مناسمى تطاير منه قادح ومفلل» فالتتابع فى التلاقى وفى المناسمة، وفى التطاير يأتى من جهات متعددة لا من جانب واحد وتتلاقى هذه المعانى فى قادح وملل فيستمر تطاير الشرر ، وتتابع التكسير مرات ومرات . وأما الألوان فتوحى بالزهو والاعتزاز حين يفتخر بنفسه ويعتز بشخصه ، فالجمع فى « صدور مطيكم — قوم سواكم — الحاجات — لطياتى — مطايا

وأرحل ، يلون مشاعره بالعزة والفخار ، وما يشيع فيه قمر الليل وسعة الأرض من بيض الأماني وزهو الرغبة فيمتلىء عزة وأنفة . وكذلك الطعم والرائحة تجد الطعم فى حلاوة البسالة وطعمها الذى يلذ النفس ويمتع القلب ، وطعم العجلة والجشع مر خبيث لكن حلاوة البسطة والتفضل تمتع الإنسان وتربى فيه العزة والأنفة . وأما رائحة الجانى والخذلان كريهة يأباها مثل الشنفرى الذى تهب عليه نفحات البطولة والاستبسال بنشرها الفواح الذائع ، الذى يعطر الآناف ويذكى النفوس . . : وهكذا يشخص لك الشاعر عناصر التصوير الأدبى من لون وحركة وطعم ورائحة وغيرها ، حتى نهاية القصيدة يجسم فيها مشاعره بالفخر والاعتزاز ، وتفيض عن عاطفة البطولة والعفة والحرية .

## شخصية الشنفرى فى القصيدة :

الشنفرى شاعر من شعراء الصعاليك ، الذين كانت لهم أهداف اجتماعية عانوها فى شعرهم ؛ فهم فقراء ، وغرباء وأحرار ، يعطفون على الفقراء ، وأبطال شجعان ، يغيرون على الأغنياء ، لا يهابون الصعاب ، يترفعون على المسألة ، ويألفون الحيوان . . . هذه أهم الملامح الشخصية للصعاليك التى كانت تجرى فى عروقهم ويتلاءم مع عاداتهم وأحوالهم ، فالشنفرى فى لاميته صعلوك من الصعاليك .

أما حريته وانطلاقه فتجده فى مطلع القصيدة فهو ينادى بنى قومه بإعداد الراحلة ، ليرحل فى حرية وكرامة إلى قوم سواهم أعز منهم ، فالأرض واسعة لا تضيق عن الأحرار والكرماء .

وأما غربته فتجدها فى الأرض البعيدة عن قومه ، وبين الحيوانات

التى يخافها الناس ويخشاها ، فهى أليفة إليه ، حتى عرف أسرارها وطبيعتها وراقب أحوالها فى الشدة والرخاء ، وغرابة اللفظ ووحشيته .

وأما عطفه على الفقراء وعفته فهو لا يتعجل فى الطعام ولا يجشع فى الأكل ، بل جعل غيره هو الذى يتقدم فيأكل ، ويتفضل على المحتاجين بالإحسان والإنفاق .

وأما ترفعه عن المسألة فهو يميت الجوع حتى ينساه ، ويسف التراب حتى لا يتطاول عليه أحد بالإحسان ، ويطوى بطنه على أحشائه الملتوية كالخيوط المجدولة .

وأما عن شجاعته وبسالته ، فتراها فى معظم أبيات القصيدة ومنها قوله :

فإن تبتئس بالشنفرى أم قسطل

لما اغتبطت بالشنفرى قبل أطول

طريد جنايات تياسرن لحمه  عقيرته لأيها حم أول

وأما أنه غير هياب لا يخاف فتراه فى قوله :

ولست بمحيار الظلام إذا نحت

هدى الهوجل العسيف يهماء هوجل

إذا الأمعز الصوان لاقى مناسمى  تطاير منه قادح ومفلل

وأما تآلف الشنفرى مع الحيوان فقد عاشره عن قرب حتى أنس إليه وأحب فيه الدأب والصبر والحرية والانطلاق ، فراقب الذئاب وهى تكد وتسعى وتجوب الصحارى من أجل الحياة الكريمة ، وأبصر النحل وهى تذب عن نفسها وخليتها ، ورأى الأفعى وهى تقاوم الحر الشديد وتنتصر عليه بوثباتها ورقصاتها وتتسابق مع أسراب القطا وقطعان الأصاريم من الإبل الضامرة ، فسبقها إلى المورد وعب من الماء قبل أن تصيب منه شيئا إلا القليل .

وأما عن غاراته التى جعلت أهل الغميضاء فى حيرة مدلهمة ، فزاغت أبصارهم عن الحقيقة ولم يقفوا على أثره فى قوله :

فأصبح عنى بالغميصا خالسا فريقان مسؤول وآخر يسأل

إلى قوله :

فإن يك من جن لأبرح طارقا
وإن يك إنسا ماكها الإنس يفعل

وحين نقف مع كل الصور وكل الأبيات يطل علينا منها شخصية الشنفرى الشاعر الصعلوك

موازنة ونقد :

يقول الشنفرى فى مطلع داليته :

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم فإنى إلى قوم سواكم لأميل
فقد حمت الحاجات والليل مقمر وشدت لطياتى مطايا وأرحل
وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى
وفيها لمن خاف القِلى متعزل
لعمرك ما بالأرض ضيق على امرىء
سرى راغبا أو راهبا وهو يعقل
ولى دونكم أهلون سيد عملس وأرقط زهلول وعرفاء جيأل

ويقول عروة بن الورد فى مطلع قصيدته :

أقلى علىّ اللوم يا ابنة منذر
ونامى فإن لم تشتهه النوم فاسهرى
ذرينى ونفسى أم حسان إننى
بها قبل أن لا أملك البيع مشترى

أحاديث تبقى والفتى غير خالد إذا هو أمسى هامة فوق صير
تجاوب أحجار الكناس وتشتكى
إلى كل معروف تراه ومنكر
ذرينى أطوف فى البلاد لعلنى
أخليك أو أغنيك عن سوء محضرى
فإن فاز سهم المنية لم أكن جزوعا وهل عن ذاك من متأخر
وإن فاز سهمى كفكم عن مقاعد لكم خلف أدبار البيوت ومنظر
تقول لك الويلات هل أنت تارك ضبوءاً برجل تارة وبمنسر
ومستثبت فى مالك العام إننى أراك على أقتاد صرماء مذكر
فجوع لأهل الصالحين مزلة مخوف رداها أن تصيبك فاحذر
أبى الخفض من يغشاك من ذى قرابة
ومن كل سوداء المعاصم تعترى
ومستهنىء زيد أبوه فلا أرى له مدفعا فاقنى حياءك واصبرى(١)

---

(١) ابنة منذ : سلمى امرأته وكنيتها أم حسان ، الهامة : روح القتيل تهيم حتى يؤخذ بثأرها كما تزعم العرب فى الجاهلية ، الكناس : موضع ، التخلية : الطلاق ، الضبوء : اللصوق بالأرض ومخاتلة الصيد ليصطاد ، برجل بكسر الراء : جماعة الجراد الذى يشبه به الجيش الكثير ، المنسر : الجماعة من الخيل من الثلاثين إلى الأربعين ، الأقتاد : جمع قتد وهو خشب الرحل ، الصرماء : قليلة اللبن ، المذكر : التى تلد الذكور ، وستثبت متأن ، فجوع : تفزع الناس ، مزلة : موضع الزلل ، الخفض : لين العيش ، سوداء المعاصم : اسودت من الجدب ، يعترى : يقصد ، المستهنىء : طالب الهنء وهو المعروف ، زيد أبوه : رجل من قومه يجمعه وإياه زيد وهو جد عروة .

يتفق المطلعان فى جوانب من أهمها :

١ — كلاهما مقدمة للغرض من القصيدة ، تقوم على حوار بين الشاعر وبين غيره ، فالشنفرى يخاطب قومه جميعاً ، ومن بينهم امرأته التى لم يخصها بالذكر ، وعروة يوجه الخطاب إلى زوجته سلمى أم حسان .

٢ — المقدمة فى القصيدتين لا تمت بصلة إلى الغزل والتشبيب بالنساء، وإنما تقوم على الحوار الذى دار بين عروة وزوجه عن الرحيل والإغارة التى تعرضه للقتل أو يعود بمال يغنى به وتكفى حاجة الفقراء . أما الشنفرى فقد ترك قومه كارهاً لهم إلى موطن آخر فيه أقرانه والحيوانات المألوفة التى يتعاطف معها .

٣ — يتميز المطلعان بالسهولة والعذوبة ووضوح المعنى بلا إسراف فى الغريب من الألفاظ والأساليب .

ويختلف المطلعان فى جوانب أخرى من أهمها :

١ — مطلع الشنفرى يخاطب فيه قومه وعشيرته ، ولم يقتصر فى خطابه على زوجته ، بل اندرجت تحت القوم وبدون أن يذكرها ، بينما عروة بن الورد يخص زوجته بالحوار دون قومه ، وهما معاً يتحدثان عن الفقراء من عشيرتهما فحسب .

٢ — مطلع عروة يتميز بالحوار القصصى بينه وبين سلمى ، فهو مشفق عليها وعلى عشيرته من الفقر ، وهى تحذره من التردى فى الهلاك وتخشى عليه أن يكون فريسة الإيثار والتضحية ، بينما مطلع الشنفرى لا حوار فيه يتم الحديث من جانب الشاعر فقط دون قومه .

٣ — طال المطلع عند عروة حتى زاد عن عشرة أبيات فى دقة وتفصيل، بينما اقتصر مطلع الشنفرى على خمسة أبيات فى إيجاز .

وعلى هذا يتميز زعيم الصعاليك عروة بن الورد على الشنفرى فى مطلعه القوى الرائع فى معانيه الغزيرة وأهدافه الواضحة المتعددة ، وفى صوره الأدبية التى تتسلل إلى النفس فى سهولة وعذوبة بلا تأمل كبير أو إمعان نظر ، وذلك من خلال حوار قصصى متحرك ، أضفى على التصوير الأدبى الحيوية والحركة مما يدفع إلى الإثارة وتحريك كوامن الشوق ، والرغبة فى المعاودة والتكرار .

يقول الشنفرى فى غاراته :

فأصبح عنى بالغميصاء جالسا        فريقان مسؤول وآخر يسأل
فقالوا لقد هرت بليل كلابنا        فقلت أذئب عس أم عس فرعل
فلم يك إلا نبأة ثم هومت        فقلنا : قطاة ريع أم ريع أجدل
فإن يك من جن لأبرح طارقا
وإن يك إنسا ماكها الإنس يفعل

ويقول عروة بن الورد فى غاراته أيضاً :

سنفزع بعد اليأس من لا يخافنا        كواسع فى أخرى السوام المنفر
تطاعن عنها أول القوم بالقنا        وبيض خفاف ذات وقع مشهر
فيوما على غارات نجد وأهله        ويوما بأرض ذات شث وعرعر
يناقلن بالشمط الكرام أولى النهى
نقاب الحجاز فى السريح المسير(١)

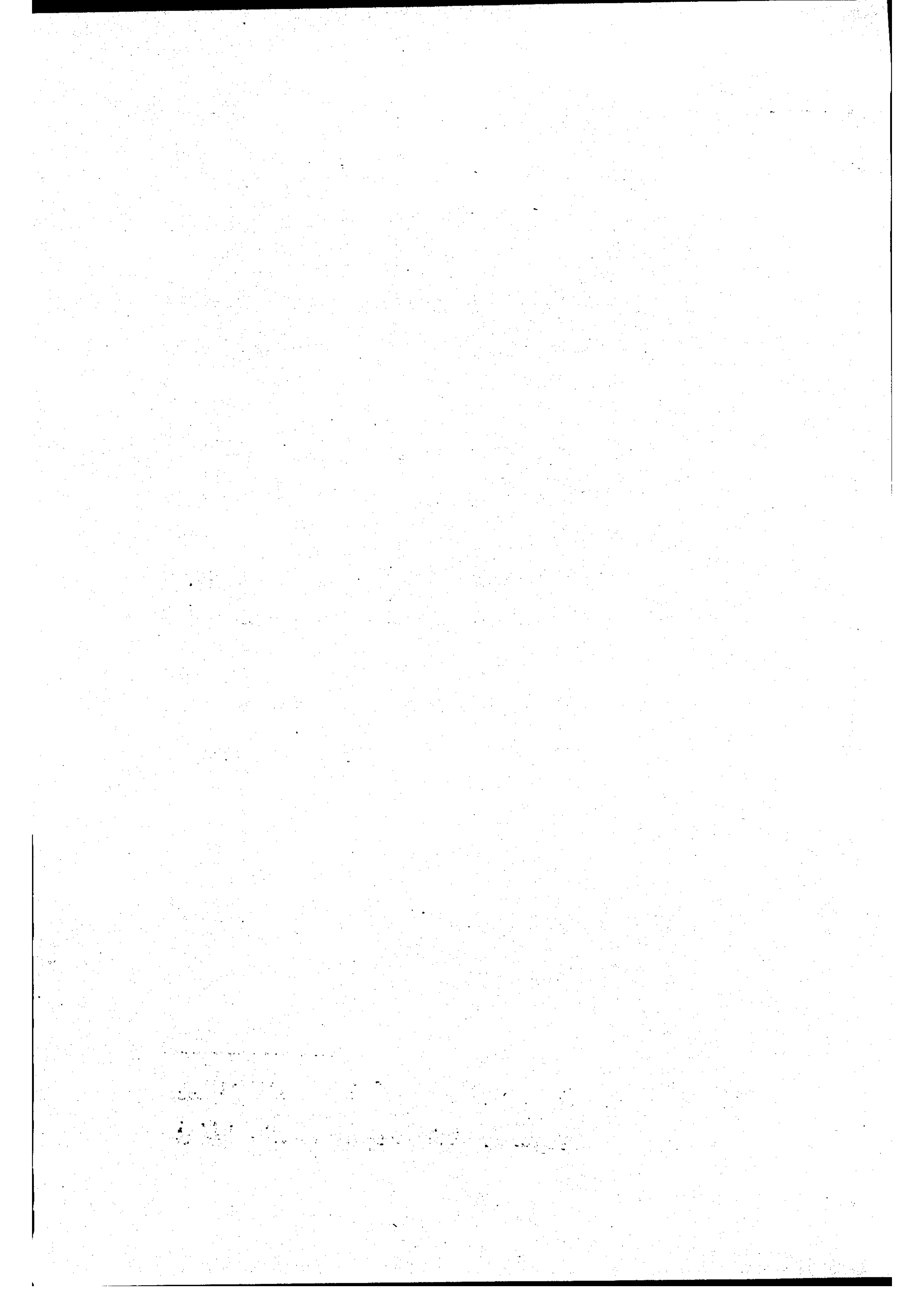
(١) كواسع : خيل تطرد الإبل ، السوام : الإبل ، المنفر : المذعور ، البيض : السيوف . الشث والعرعر : نوعان من أشجار الجبال ، المناقلة : حسن نقل القوائم فى سرعة ، أشمط : الذى اختلط بياض شعره بسواده =

الشنفرى يُفزّع وحده أهل الغميصاء بنجد ، فلا يعرفون السبب ولا يدركون له أثراً يدل عليه ، وذلك فى تصوير أدبى قوى ، يقوم على الحوار الحى القصصى المتحرك ، الذى يدور بين القوم بعضهم من بعض ، ويذهبون فى المغير كل مذهب أهو ذئب أم قطاة أم صقر ، أم جن ، أم إنس ، فهم متحيرون لا يعرفون شيئاً ولا يدركون له أثراً .

أما غارة عروة فقد كانت بكتيبة تواجه أهل نجد على خيل تسوق أمامها السوام بعد المواجهة والطعان ، وكل يوم لهم غارة فيوما على نجد ويوما بذات شث وعرعر ، حتى طار ذكرهم فى الحجاز أبطالا محنكين وهذه الصورة خالية من الحوار القصصى التى يمنحها الحيوية والحركة ، فالشاعر عروة يريد الحكم على أبطاله بأنهم قادة محنكون تناقلت البلاد أخبارهم بدون تصوير دقيق لمعركة من معاركهم بكل جوانبها بينما الشنفرى ينقل إلينا فى حوار قصصى لوحة الإغارة ، فالكلاب تنبح والقوم يتحاورون لمعرفة الأسباب فى فزع ورهبة ، وينتهى بهم الأمر إلى الدهشة والحيرة فى أمر المغير عليهم .

* * *

= والمراد الفرسان المحنكون ، النقاب : جمع نقب وهو الطريق الضيق فى الجبل ، السريح : ما يشد به النعال من سيوره .



# الفصل الثاني

## من النثر الجاهلي في ضوء التحليل والنقد

### أدب الخطابة :

الخطابة فن أدبي قديم عاش مع الإنسان ، إذ هي خير وسيلة للتأثير على السامعين وإقناعهم . وخير أداة للدعوة إلى السلم أو الحرب ، أو السياسة ، أو التربية ، أو الوعظ والإرشاد أو التوصية والتوجيه .

وعلى ذلك تكون الخطابة ضرورية لكل أمة لا تستغني عنها في شئونها وبخاصة عند العرب في الجاهلية . فيوجه الخطيب غيره بالقول الحلو، والأسلوب الفصيح عن طبيعة سهلة ، وفطرة سليلمة وارتجال في القول :

يقول الجاحظ في البيان والتبيين : كل شيء للعرب إنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة ولا استعانة. إنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام عند المقارعة أو المناقلة ، أو عند صراع أو في حرب . فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى المذاهب وإلى العمود الذي إليه يقصد فتأتيه المعاني إرسالا ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا ، وكان الكلام الجيد عندهم أكثر وأظهر ، وهم عليه أقدر وله أقهر ، وكل واحد في نفسه أنطق ومكانه في البيان أرفع ، وخطباؤهم للكلام أوحد والكلام عليهم أسهل وهو عليهم أيسر من غير تكلف ولا تحفظ ولا طلب .

وكثيراً ما تكون الخطابة عندهم في مواقف الزواج ، وفي المحافل والأسواق وفي المنافرات والمفاخرات ، وفي الوفادة على الملوك والأمراء .

الخطيب :

١ — منزلة الخطيب : كان الشعر يتأتى لعامة الناس وغيرهم من الأشراف فى العصر الجاهلى ، أما الخطابة فلم تكن إلا للأشراف منهم وللسادة والأمراء وللمصلحين للداعين إلى الخير والسلام والصلح . يقول أبو عمرو بن العلاء : كان الشاعر فى الجاهلية يقدّم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذى يقيد عليهم مآثرهم ، ويفخم شأنهم ، ويهول على عدوهم ومن غزاهم، ويهيب من فرسانهم، ويخوف من كثرة عددهم ، ويهابهم شاعر غيرهم ، فيراقب شاعرهم ، فلما كثر الشعر والشعراء ، واتخذوا الشعر مكسبة ، ورحلوا إلى السوقة ، وتسرعوا إلى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر .

لذلك حظى الخطيب عندهم بمكانة سامية لاتقل عن مكانة الشاعر يقول الجاحظ : كان الشاعر أرفع قدراً من الخطيب وهم إليه أحوج لرد مآثرهم عليهم وتذكيرهم بأيامهم ، فلما كثر الشعراء ، وكثر الشعر صار الخطيب أعظم قدراً من الشاعر .

٢ — أن يكون الخطيب جهير الصوت فى رباطة جاش ، وبلاغة قول ونصاعة حجة وصدق منطق ، مع قلة الحركة والإشارة . جاء فى البيان والتبيين أن العرب كانوا يمدحون الجهير الصوت ، ويذمون الضئيل الصوت ، ولذلك تشادقوا فى الكلام ومدحوا سعة الفم ، وذموا صغر الفم ، وقيل لأعرابى ما الجمال ؟ قال : طول القامة وضخم الهامة ، ورحب الشدق ، وبعد الصوت .

٣ — من المظاهر الخارجية للخطيب أنه يخطب واقفا على مرتفع من الأرض معصوب الرأس بعمامة ، ممسكا بيده عصا أو سيفا أو قوسا أو رمحا.

٤ — فى العرب خطبا فصحاء اشتهروا ببلاغتهم ونصاحتهم وكان لهم أثر قوى فى النفوس ، وعلى سبيل المثال نذكر بعضهم . فهذا وفد تميم يفد على النبى ﷺ بعد فتح مكة وفيهم عطارد بن حاجب بن زرارة وعتبة بن حصن بن حذيفة بن بدر،والأقرع بن حابس فى لفهم ولفيفهم ، ودخلوا المسجد ونادوا يا محمد اخرج إلينا ، فخرج إليهم . فقالوا : جئناك لنفاخرك ، فائذن لشاعرنا وخطيبنا ، فأذن لخطيبهم عطارد ، فخطب ، ورد عليه ثابت بن قيس الأنصارى ، وأذن لشاعرهم الزبرقان بن بدر فأنشد :

نحن الكرام فلاحى يعادلنا     منا الملوك وفينا يقسم الربع

ورد عليه حسان بن ثابت :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم     قد بينوا سنة للناس تتبع

فلما فرغ حسان من إنشاده قال الأقرع بن حابس : وأبى إن هذا الرجل لموتى له ، لخطيبه أخطب من خطيبنا ، وشاعره أشعر من شاعرنا ، وأصواتهم أعلى من أصواتنا ثم أسلموا جميعاً .

ومن أشهر خطباء العرب قس بن ساعدة الإيادى ،كان على قدر كبير من بلاغة الحديث ونصاحة الكلم ، يضرب به المثل فى الحكمة والمثل ، على دين النصرانية ، يدعو إلى التوحيد ، ونبذ عبادة الأصنام ، عُمِّرَ طويلا وشهده الرسول ﷺ يخطب بعكاظ ، ومات قبل البعثة .

وتمتاز خطبه بالبلاغة ، وسهولة التركيب ، وحسن الألفاظ ، وكثرة الحكم والأمثال ، وقصر الجمل والفقرات وقلة الروابط وحروف العطف ، والإيجاز ، وعدم الحشو ودقة التصوير ، وقوة التأثر .

ومن أشهر خطباء العرب حاجب بن زرارة ، وعمرو بن الشريد ، وعامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة ، وعمرو بن معديكرب ، وهانى بن قبيصة الشيبانى ومرثد الخير الحميرى ، وعامر بن الظرب العدوانى وقبيصة ابن نعيم ، وكعب بن لؤى وهاشم بن عبد مناف ، وأبو طالب ، وعمرو بن كلثوم ، وربيعة بن نذار ، وهرم بن قطبة وغيرهم .

أسلوبها :

أما الأسلوب فى الخطبة فيمتاز بالفصاحة فى اللفظ والبلاغة فى القول ، والإيجاز والإثارة ، والجمل القصيرة ، وقلة الروابط ، والبعد عن التصنع ومجانبة المحسنات البديعية إلا ما أتى عفواً من سجع أو طباق وجناس ، يزدان بالحكم وينتشر فيها المثل ، ويقل فيها التصوير البيانى ، ويقوى التأثير ، لذلك يقل فيها الخيال ، ويعتمد الأسلوب على الفكر والعقل .

أغراضها :

وهى كثيرة منها :

١ — المنافرة والمفاخرة .
٢ — التوصية بفعل الخير والمعروف .
٣ — الحث على القتال والأخذ بالثأر .
٤ — الحث على الصلح والسلام .
٥ — التهنئه فى المحافل .
٦ — العزاء فى عظيم .
٨ — التبشير بدين جديد .
٩ — الحث والاستنجاد .

### أكثم بن صيفى :

ينتسب إلى تميم ويعد شيخ الخطباء فى عصره ، وأقواهم حجة ، وأعلمهم بالأنساب وأيام العرب ، وأغزرهم حكمة ، وأشهرهم مثلا وأدقهم معنى ، وأحلاهم لفظا ، وأقربهم إلى الفطرة العربية ، وأحسنهم بلاغة ومجازا ، عاش طويلا حتى أدرك بعثة المصطفى ﷺ ، وحض قومه على الإيمان به ، واتباع تعاليمه .

خطب أكثم بن صيفى خطبته المشهورة أمام كسرى أنوشروان فقال :

« إن أفضل الأشياء أعاليها ، وأعلى الرجال ملوكهم ، وأفضل الملوك أعمها نفعا ، وخير الأزمنة أخصبها ، وأفضل الخطباء أصدقها .

الصدق منجاة ، والكذب مهواة ، والشر لجاجة ، والحزم مركب صعب ، والعجز مركب وطىء ، آفة الرأى الهوى ، والعجز مفتاح الفقر ، وخير الأمور الصبر ، حسن الظن ورطة ، وسوء الظن عصمة ، إصلاح فساد ذات الرعية خير من إصلاح فساد الراعى .

من فسدت بطانته كان كالغاص بالماء ، شر البلاد بلاد لا أمير بها ، شر الملوك من خافه البرىء ، المرء يعجز لا محالة ، أفضل الأولاد البررة ، خير الأعوان من لم يُراءِ بالنصيحة ، أحق الجنود بالنصر من حسنت سريرته ، يكفيك من الزاد ما بلَّغك المحل ، حسبك من شر سماعه ، الصمت حكم وقليل فاعله ، البلاغة الإيجاز ، من شدد نفَّر ، ومن تراخى تألَّف » .

فأعجب به كسرى وقال : لو لم يكن للعرب غيرك لكفى .

### مناسبة الخطبة :

وقعت بين النعمان سيد المناذرة وبين كسرى مناظرة أحس فيها النعمان بأنه قد نال من العرب وهز مكانتهم ، فأبت نفسه ذلك ، وحينما وصل إلى

الحيرة شكل وفدا من عشرة من مشاهير العرب على رأسهم زعيم الخطباء أكثم بن صيفى ، ثم ساروا جميعا إلى كسرى حتى نزلوا بساحته وأشادوا بما للعرب من عزة ومجد وكرم وسؤدد ، وقام أكثم وقدم هذه الخطبة فأعجب بهم وأكرم وفدهم .

تحليل الخطبة :

كانت خطبة أكثم بن صيفى شاملة وجامعة ، فقد أصابت المحز وحققت الهدف ، لأن كسرى رمى العرب بالضياع والمهانة فهم رعاع لا دولة لهم وأصابهم بالعجز والهوان ، فليس لديهم قانون يحكمهم ، ولا رعية تستجيب لأميرهم ولا علم ولا حضارة ولا أحلام ولا عقول ولا أدب ولا فكر ولا خبرة بالحكم ولا بصيرة بالرأى .

كانت هذه هى السهام التى وجهها كسرى للنعمان واستوحاها ابن صيفى من خلال المناظرة والمحاورة التى وقت فى المجلس فوقف خطيبا يرد بمروءته العار عن العرب ويشيد بعزته وإبائه بمجد أمته ومكانتها بين الأمم ويقنع بفصاحته أو بلاغته : يقنع خصمه كذلك برجاحة عقولهم وبصيرة رأيهم وسداد حكمهم وبلاغته قولهم ، وخبرتهم بالأمور وحكمتهم فى الحياة ، وعرفانهم بقوانين الحكم واستقامة الحاكم وواجب الرعية .

وتكلم عن منزلة الحكام فى الشعوب ، وعن أفضل الملوك : وهو أكثرهم نفعا للبلاد ، وأوسعهم خيرا للعباد ، وعن شر الحكام وهو من ضاع فى ظله حق البرىء ، أو فسدت بطانته وساءت وزارته ، وبين أفضل الأزمنة وهى التى تعود على الناس بالزرع والضرع والخير الجزيل ، وتحدث عن مكان الصدق من الخطبة ، فالكذب يذهب بروعتها ، ويفقدها قوة التأثير

الذى يساعد على الإقناع والتسليم ، وميز بين الأولاد فى المنبت السوء ، والأولاد البررة ، أنهم خير عون على شدائد الحياة ، وأحداثها الجسام.

ثم وازن بين فساد الرعية ، وبين فساد الراعى ، وأن الخير فى إصلاح الرعية لا فى تقويم فساد الراعى ، لأن الرعية أمة وفسادها يدمر الدولة ، ويبعث الشر والهلاك فيها ، وينتهى بها إلى الفناء . أما فساد الراعى فأمره مقصور عليه ، وهناك الكثير من يحل محله ، ويصلح ما أفسده ، وهذا يدل على خبرتهم بشئون الحكم وبصيرتهم النافذة بأمر السياسة ونظام الدولة .

ثم حدد أسس النصر للجيوش ، ووضع المبادىء لظفر الجنود ، وهى إخلاص الجندى ، وسلامة سريرته ، وحسن نيته ، وهذا يسلمه إلى طاعة قائده ، والتفانى فى جهاده ، وبذلك يستحق النصر .

ثم وضع دروسا قوية فى الأخلاق وتهذيب النفوس ، وأقر تعاليم ما أحوج الإنسانية إلى التمسك بها ، وهى التى جاء بها الإسلام الحكيم ، ليوضح إرهاص الحكماء والعظماء الذين أشادوا بالقيم النبيلة ، ورفعوا من شأن الأخلاق الجميلة ليبشروا بمولد محمد ﷺ ، فيرى أن النجاة فى الصدق وأن البلية فى الكذب ، وأن اللجاجة فى الشر ، وأن الإقدام فى الخير ، والحزم لا يتقلده إلا العظماء من الرجال ، والعجز صفة الضعاف منهم ، ومن غلب عليه أمره فمن المروءة أن يستشير غيره ، ولا يستبد برأيه ، والصبر فى الرجال يدل على بصيرتهم النافذة ، وعقولهم الراجحة ، ومن التعقل التريث فى الأمور والروية فى الملمات ، لأن حسن الظن مهواة ، وسوء الظن منجاة ، وأن العقل فى الصمت ، وقريب من الصمت الإيجاز فى القول ، وفى الإيجاز غاية البلاغة والفصاحة وقمة التأثير والإقناع .

## نقد الخطبة :

ظهرت معانى الخطبة فى صورة الحكمة ، وبرزت فى ثوب المثل فهى حكم وأمثال نبعت من نفس مفعمة بالتجارب الكثيرة ، والخبرة الواسعة التى جعلت منه حكيما ، وعالما بصيراً بأمور الحياة وأحداثها وشئونها .

ولذلك جاءت ألفاظها قوية جزلة فى جمل قصيرة مستقلة ينفصل بعضها عن بعض لا يربطها إلا رابط عام فقط ، هو موضوع الخطبة من النصح والإرشاد .

ولقد اتبع أدباء المهجر هذه الطريقة فى نثرهم الأدبى وأسموه « النثر المشعور » واستغنوا عن الروابط بين الجمل ، وأسقطوا حرف العطف من بين العبارات ، وعدوا هذا شعرا جديدا لخلوه من الروابط .

وهذا فى رأيى ليس إلا نثرا أدبيا ، يفترق عن نثر أكثم بن صيفى بعمقه الثقافى والفكرى ، وتهذيب ألوان الحضارة فيه .

واعتمد الخطيب هنا على الحقيقة والتصريح لا على الخيال والمجاز إلا فى النادر ، والذى دعاه إلى ذلك أن الخطبة كانت أمام كسرى وهو لا يفهم من بلاغة اللغة العربية شيئا ، وكان المقام هنا توصيل الحقيقة فقط وإيصال المعنى محددا ومجردا من الاتساع والإيحاء ، فكان الخطيب فى قمة البلاغة حيث جعل لكل مقام مقالا وهو ما يسمى فى البلاغة العربية بمقتضى الحال .

## منهج الخطبة :

كان للخطبة فى العصر الجاهلى منهج تتميز به ، وسمات تختص بها بحيث تنفرد بها عن الخطبة فى عصر صدر الإسلام والعصر الأموى ، إذ نرى الخطبة فى العصر الجاهلى تتميز بهذه الخصائص .

١ — لا توجد بها مقدمة بل يدخل الخطيب على موضوعه مباشرة من غير تقديم، على خلاف الخطبة فى عصر الإسلام ؛ إذ لا بد لها من مقدمتها المعروفة.

٢ — يغلب فيها الحكم والأمثال وهذه تقوم مقام آيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة للخطبة فى عصر صدر الإسلام وما بعده.

٣ — إنها تضم من وسائل الإقناع والأدلة التى تلزم المستمع بما فيها ولذلك نرى كسرى لاقتناعه قد أكرم وفادتهم وقال قولته المشهورة «لو لم يكن للعرب غيرك لكفى».

وإن كان عنصر الانفعال هنا ضعيفا نظرا للمقام، فقد قيلت بين يدى رجل أعجمى تتناسب معه الحقيقة مجردة من الخيال، وإن كانت الخطب تعتمد على جانب من الانفعال، وحرارة العاطفة، مما يبعث على الإثارة للنفس حتى تتهيأ للإقناع، وهو الغرض الأهم فى الخطبة، فالإثارة وسيلة للإقناع فقط.

٤ — لا يبدو للخطبة فى العصر الجاهلى أن لها خاتمة تنتهى إليها، فلو نقل الجزء الأخير من الخطبة إلى أى مكان فيها لما حدث تغيير أو اختلاف وهذا يدل على خلوها من الخاتمة.

## خطبة أبى طالب عم النبى : فى زواج الرسول ﷺ :

الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وجعل لنا بلداً حراما وبيتاً محجوجا وجعلنا الحكام على الناس ثم إن محمداً بن عبد الله ابن أخى من لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح عليه برًّا وفضلا وكرما وعقلا ومجداً ونبلا وإن كان فى المال قلٌّ فالمال ظل زائل وعارية مسترجعة وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك وما أحببتم من الصداق فعلىّ .

مناسبة الخطبة :

قيلت هذه الخطبة حين خطب محمد رسول الله ﷺ لنفسه خديجة بنت خويلد أم المؤمنين .

تحليل الخطبة :

ابتدأ أبو طالب خطبته بالثناء على الله وقصر الحمد عليه الذى جعلهم من خير الناس ومن ذرية الأنبياء ؛ فهم من نسل إبراهيم عليه السلام ومن ذرية إسماعيل عليه السلام اللذين بنيا المسجد الحرام فى البلد الحرام ، يحج إليه الناس من كل مكان وفى كل الأزمان ، ثم جعل منهم الحكام والساسة ففضلهم على خلقه . وفى هذا يشير إلى عراقة النسب . وشرف الموطن وكرم المحتد . وعزة الجانب .

ثم ثنى بزيادة الرغبة فى النبى ﷺ فذكر له شيما نبيلة وأخلاقا فاضلة . فهو من خير فتيان قريش وأرجحهم عقلا وأصدقهم قولا وأكرمهم برا وأولاهم فضلا وأعظمهم مجداً وأوفاهم نبلا .

ولا ينقص من قدره وفضله أنه قليل المال ، لأن المال من عوارض الحياة ، وظل زائل ، وعارية مستردة ، والرجال لا توزن بأموالها بل بعقلها وخلقها ، ورجولتها وشهامتها ، ومروءتها وشجاعتها .

وأخيراً أتى على الغرض من الخطبة وهو إعلان رغبة النبى ﷺ فى خديجة ، وأن الرغبة من الطرفين لها الكلمة الأولى والشأن الأعظم .

ولرجولته وشهامته على الرغم من الفقر أعطت لهم الحرية المطلقة فى تحديد الصداق كما يريدون ، ولكل ما يطلبون من مال ، لأنه عندهم ظل زائل لا يحرصون عليه .

اللفظ والمعنى فى الخطبة :

تمتاز هذه الخطبة بسمو معانيها ووضوحها، وليس بها عمق ولا سعة بل هى محدودة الفكرة موجزة الغرض .

ويتسم اللفظ فيها بالجزالة والقوة والوضوح والبعد عن الغريب الوحشى من اللفظ ، ثم يتخللها بعض الصور البيانية التى أضفت عليها من قوة التأثير فى النفس ما يجعلها تستجيب لها ، وتنصت إلى سماعها وتبلغ أعماقها ؛ فتستسلم للأمر ، وتلبى الرغبه عن اقتناع ورضى .

نقد الخطبة :

كان لهذه الخطبة خصائص تجعلها تمثل مرحلة بين مرحلتين بين الخطبة فى العصر الجاهلى والعصر الإسلامى إذ ترى لها :

١ — مقدمة وإن كانت موجزة متمثلة فى الثناء على الله عز وجل . ثم ثنى فيها ببيان صفات المتحدث عنه .

٢ — تميز الغرض من الخطبة وبدا مستقلا عن المقدمة ، وإن كان الغرض دون المقدمة ، فهو يبدأ من قوله وله فى خديجة بنت خوتلد رغبة .

٣ — لم تكن لهذه الخطبة خاتمة بل انتهت بالغرض منها ، وهذا على خلاف المألوف فى أى موضوع فله مقدمة وغرض وخاتمة .

٤ — الخيال هنا أخذ دوره مع العقل نوعا ما ، ليعمل على إثارة النفس تمهيدا لإقناعها كما هو الشأن فى الخطبة الجيدة القوية .

وذلك فى مثل: فالمال ظل زائل وعارية مسترجعة وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك ، من لا يوزن به فتى من قريش وغير ذلك .

خطبة قس بن ساعدة الإيادى :

قس بن ساعدة الإيادى خطيب العرب وحكيمهم ، كانوا يتحاكمون إليه

فى الخصومات ، ينسب إليه قوله : « البينة على من ادعى واليمين على من أنكر » آمن بالنصرانية ، فكان موحدا ، يدعو إلى التوحيد ، وترك عبادة الأصنام والأوثان ، وكان يخطب فى سوق عكاظ ، ويعتمد على السيف أو العصا ، قيل إنه أول من استعمل فى الخطبة قوله : « أما بعد » ، قد سمعه النبى ﷺ وهو يخطب فيه . مما رواه بن عباس رضى الله عنهما قال : وفد الجارود بن عبد الله فى وفد عبد القيس ، وكان سيدا فى قومه ، معظما فى عشيرته ، فآمن وآمن قومه ، فسر النبى ﷺ بهم ، ثم قال : يا جارود فى جماعة عبد القيس من يعرف لنا قسا؟ قال : كلنا نعرفه يارسول الله ، وأنا كنت من بينهم أقفو أثره ، وأطلع خبره ، كان قس سبطا من أسباط العرب صحيح النسب ، فصيحا ذا شيبة حسنة ، عمر طويلا(١) يتقفر القفار ولا تكنه دار ولا يقره قرار يتحسى فى تقفره بعض الطعام ويأنس بالوحوش والهوام يلبس المسوح ويتبع السياح على منها المسيح لا يغير الرهبانية مقر بالوحدانية تضرب بحكمته الأمثال وتكشف به الأهوال أدرك رأس الحواريين فهو أول من تأله من العرب وأعبد من تعبد فى الحقب وآمن بالبعث والجزاء وحذر سوء المنقلب والمآب ووعظ بذكر الموت وأمر بالعمل قبل الفوت الحسن الألفاظ الخاطب بسوق عكاظ العارف بشرق وغرب ويابس ورطب ، وأجاج وعذب ، كأنى أنظر إليه ، والعرب بين يديه ، يقسم بالرب ، ليبلغن الكتاب أجله ، وليوفين كل عامل عمله . . . فقال النبى ﷺ على رسلك يا جارود فلست أنساه بسوق عكاظ على جمل له أورق ، وهو يتكلم بكلام مونق ما أظن أحفظه ؛ فهل فيكم يا معشر المهاجرين والأنصار من يحفظ لنا منه شيئاً ؟ فوثب أبو بكر قائما وقال ، يا رسول الله أنا أحفظه

---

(١) بلغ عمره نحو ثمانين ومائة سنة زمات قبيل البعثة .

وكنت حاضرا بعكاظ حين خطب فأطنب ، ورهب ورغب وحذر وأنذر ، وقال فى خطبته :

« أيها الناس اسمعوا وعوا ، وإذا وعيتم فانتفعوا ، إنه من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، مطر ونبات ، وأرزاق وأقوات ، وآباء وأمهات وأحياء وأموات ، وجمع وشتات ، وآيات بعد آيات ، إن فى السماء لخبرا ، وإن فى الأرض لعبرا ، ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، وأرض ذات أرتاج ، وبحار ذات أمواج مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون ، أرضوا بالمقام فأقاموا ، أم تركوا هناك فناموا ؟ أقسم قس بالله قسما حقا لا آثما فيه ولا حانثا ، إن لله دينا هو أحب إليه من دينكم الذى أنتم عليه ، ونبيا قد حان حينه ، وأظلكم أوانه ، وأدرككم إبانه ؛ فطوبى لمن آمن به فهداه وويل لمن خالفه وعصاه ثم قال : تبا لأرباب الغفلة من الأمم الخالية والقرون الماضية يامعشر إياد أين الآباء والأجداد ؟ وأين المريض والعواد وأين الفراعنة الشداد ؟ أين من بنى وشيد ؟ وزخرف ونجد ؟ وغره المال والولد ؟ أين من بغى وطغى ؟ وجمع فأوعى ؟ وقال أنا ربكم الأعلى ؟ ألم يكونوا أكثر منكم أموالا ؟ وأطول منكم آجالا ؟ طحنهم الثرى بكلكله ومزقهم بتطاوله فتلك عظامهم بالية وبيوتهم خاوية عمرتها الذئاب العاوية كلا بل هو المعبود ليس بوالد ولا مولود . ثم أنشأ يقول :

فى الذاهبين الأولين ... من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا ... للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها ... تمضى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضى ولا ... يبقى من الباقين غابر
أيقنت أنى لا محالة ... حيث صار القوم صائر

فقال رسول ﷺ : رحم الله قسا إنى لأرجو أن يبعثه الله أمة وحده .

## أدب القصة فى النثر الجاهلى :

١ — مصرع الزباء : كان جذيمة قد ملك ما على شاطىء الفرات ، وكانت الزباء ملكة الجزيرة وكان جذيمة قد وترها بقتل أبيها ، فلما استجمع أمرها ، وانتظم شمل ملكها أحبت أن تغزو جذيمة ، ثم رأت أن تكتب إليه : إنها لم تجد ملك النساء إلا قبحا فى السماع ، وضعفا فى السلطان ، وإنها لم تجد لملكها موضعا ولا لنفسها كفئا غيرك ، فأقبل إلىّ لأجمع ملكى إلى ملكك ، وأصل بلادى ببلادك ، وتقلد أمرى مع أمرك .. فلما أتى كتابها جذيمة وقدم عليه رسلها استخفه مادعته إليه ، ورغب فيما أطمعته فيه ، فجمع أهل الحجا والرأى من ثقاته ، وهو يومئذ ببقة من شاطىء الفرات ، وعرض عليهم ما دعته إليه وعرضت عليه ، فاجتمع رأيهم على أن يسير إليهم ، فيستولى على ملكها .

وكان فيهم قصير — وكان أريبا حازماً أثيراً عند جذيمة — فخالفهم فيما أشاروا به ، وقال : رأى فاتر ، وعذر حاضر . ثم قال لجذيمة : الرأى أن تكتب إليها ، فإن كانت صادقة فى قولها فلتقبل إليك ، وإلا لم تمكنها من نفسك ، ولم تقع فى حبالها ، وقد وترتها وقتلت أباها ، فلم يوافق جذيمة ، وقال له : رأيك فى الكن لا فى الضح ودعا جذيمة عمرو بن عدى ابن أخته فاستشاره ، فشجعه على المسير وقال : إن قومى مع الزباء ، ولو رأوك صاروا معك ، فأحب جذيمة ما قاله ، وعصا قصيرا ، فقال قصير : لا يطاع لقصير أمر .

واستخلف جذيمة عمرو بن عدى على ملكه وسلطانه وسار فى وجوه أصحابه فأخذ على شاطىء الفرات من الجانب الغربى ، فلما نزل دعا قصيرا

فقال : ما الرأى يا قصير ؟ فقال قصير : ببقة خلفت الرأى ، قال : وما ظنك بالزباء ؟ قال : القول رداف ، والحزم عثراته تخاف .

واستقبلته رسل الزباء بالهدايا والألطاف ، فقال : يا قصير كيف ترى ؟ قال : خطب يسير فى خطب كبير ، وستلقاك الجيوش ، فإن سارت أمامك فالمرأة صادقة وإن أخـــذت جنبتيك وأحاطت بك من خلفك فالقوم غادرون بك فاركب ( فرسه ) فإنها لا يشق غبارها — وكانت العصا فرسا لجذيمة لا تجارى — وإنى راكبها ومسايرك عليها . فلقيته الخيول والكتائب فحالت بينه وبين العصا فركبها قصير ونظر إليه جذيمة على متن العصا موليا فقال : ويل أمه حزماً على متن العصا وجرت به إلى غروب الشمس ثم نفقت وقد قطعت أرضا بعيدة .

وسار جذيمة وقد أحاطت به الخيل حتى دخل على الزباء فلما رأته قالت : أشوار عروس ترى ؟ فقال : أم غدر أرى ، ثم دعت بالسيف والنطع وقالت : إن دماء الملوك شفاء من الكلب ؛ فأمرت بطست من ذهب قد أعدته له وسقته الخمر حتى سكر وأخذت منه الخمر ما أخذها فأمرت براهشيه ( عرقان فى الذراعين ) فقطعا وقدمت إليه الطست — وقد قيل لها : إن قطر من دمه شىء فى غير الطست طلب بدمه — ضعفت يداه سقطتا فقطر من دمه فى غير الطست ، فقالت : لا تضيعوا دم الملك . فقال جذيمة : دعوا دما ضيعه أهله فهلك جذيمة .

وخرج قصير من الحى الذى هلكت العصا بين أظهرهم حتى قدم على عمرو بن عدى — وهو بالحيرة — فقال له قصير : أثائر أنت ؟ قال : بل ثائر سائر ووافق قصير الناس وقد اختلفوا وأصلح بينهم ثم قال لعمرو بن عدى : تهيأ واستعد ولتطلبن دم خالك . قال : وكيف لى بها وهى أمنع من

عقاب الجو وكانت الزباء سألت كاهنة لها من هلاكها فقالت : أرى هلاكك بسبب غلام مهين غير أمين وهو عمرو بن عدى ولن تموتى بيده لكن حتفك بيدك ومن قبله ما يكون ذلك .

فحذرت عمرا واتخذت لها نفقا من مجلسها الذى كانت تجلس فيه إلى حصن لها فى داخل مدينتها وقالت : إن فاجأنى أمر دخلت النفق إلى حصنى . ودعت رجلا مصورا من أجود أهل بلاده تصويرا وأحسنهم عملا فجهزته وأحسنت إليه وقالت : سر حتى تقدم على عمرو بن عدى متنكرا فتخلو بحشمه فتنضم إليهم ، وتخالطهم وتعلمهم ما عندك من العلم بالصور ثم أثبت لى عمرو بن عدى معرفة فصوره جالسا وقائماً وراكباً ومتفضلا ومتسلحا بهيئته ولبسته ولونه ، فإذا أحكمت ذلك فأقبل إلىّ . فانطلق المصور حتى قدم على عمرو بن عدى وصنع الذى أمرته به الزباء بعلم ما وجهته له من الصور على ما وصفت وأرادت أن تعرف عمرو بن عدى فلا تراه على حال إلا عرفته وحذرته وعلمت علمه .

وقال قصير لعمرو بن عدى : اجدع أنفى واضرب ظهرى ودعنى وإياها ، فقال عمرو : ما أنا بفاعل ، وما أنت لذلك مستحقا عندى . فقال قصير : خل عنى إذن وخلاكِ ذم . فقال له عمرو : فأنت أبصر ، فجدع أنفه وأثر آثارا بظهره ، فقالت العرب : لأمر ما جدع قصير أنفه . ثم خرج كأنه هارب ، وأظهر أن عمرا فعل ذلك به وأنه زعم بأنه مكر بخاله جذيمة وغره ، فسار حتى قدم على الزباء فقيل لها : إن قصيراً بالباب فأمرت به فأدخل فإذا أنفه قد جدع وظهره قد ضرب فقالت : ما الذى أرى بك يا قصير ؟ قال : زعم عمرو أنى قد غررت خاله ، وزينت له المصير إليك

وغششته وما لأتك ، ففعل بى ما ترين فأقبلت إليك فأكرمته وأصابت عنده من الحزم والرأى ما أرادت .

فلما عرف أنها استرسلت إليه ، ووثقت به قال : إن لى بالعراق أموالا كثيرة وطرائف وثيابا وعطرا ، فابعثينى إلى العراق ، لأحمل مالى وأحمل إليك من بزها وطرائفها وثيابها وطيبها لتصيبى من ذلك أرباحا عظيمة وبعض ما لا غنى للملوك عنه ، وكان أكثر ما يطرفها من الصرفان ( تمر جاف ) وكان يعجبها ، فلم يزل يزين ذلك حتى أذنت له ودفعت إليه أموالا وجهزت معه عبيدا فسار قصير بما دفعت إليه حتى قدم العراق ، وأتى الحيرة متنكرا فدخل على عمرو بن عدى ، فأخبره الخبر ، وقال : جهز لى بصنوف البز والأمتعة لعل الله يمكن من الزباء فتصيب ثأرك وتقتل عدوك ، فأعطاه حاجته ، فرجع بذلك إلى الزباء ، فأعجبها ما رأت وسرها وازدادت به ثقة وجهزته ثانية فسار حتى قدم على عمرو ، فجهزه وعاد إليها .

ثم عاد الثالثة وقال لعمرو : اجمع لى ثقات أصحابك وهيىء لى الغرائر وأحمل كل رجلين على بعير فى غرارتين فإذا دخلوا مدينة الزباء ، أقمتها على باب نفقها ، وخرجت الرجال من الغرائر فصاحوا بأهل المدينة ، فمن قاتلهم قتلوه ، وإن أقبلت الزباء تريد النفق جللتها بالسيف .

ففعل عمرو ذلك ، وحمل الرجال فى الغرائر بالسلاح ، وسار يكمن النهار ويسرى بالليل ، فلما صار قريبا من مدينتها تقدم قصير فبشرها وأعلمها بما جاء به من المتاع والطرائف وقال لها : آخر البز على القلوص ، وسألها أن تخرج فتنظر إلى ما جاء به وقال لها : جئت بما صاء وصمت ( الإبل

والذهب ) ، ثم خرجت الزباء فأبصرت الإبل تكاد قوائمها تسوخ فى الأرض من ثقل أحمالها ، فقالت يا قصير :

ما للجمال مشيها وئيدا أجندلا يحملن أم حديدا
أم صَرفانا تارزاً شديدا

فقال قصير فى نفسه : بل الرجال قبضا قعودا .

فدخلت الإبل حتى كان آخرها بعيرا مر على بواب المدينة وكانت بيده منخسة فنخس الغرارة فأصابت خاصرة الرجل الذى فيها فسمع له صوتا ، فقال : شر فى الجوالق ، فلما توسطت الإبل المدينة أنيخت ، ودل قصير عمرا على باب النفق الذى كانت الزباء تدخله ، وأرته إياه قبل ذلك ، وخرج الرجال من الغرائر ، فصاحوا بأهل المدينة ووضعوا فيهم السلاح ، وقام عمرو على باب النفق وأقبلت الزباء تريده ، فأبصرت عِمرا فعرفته بالصورة التى صورت لها ، فمصت خاتمها — وكان فيه السم — وقالت : بيدى لا بيد عمرو ، وتلقاها عمرو فجللها بالسيف وقتلها وأصاب ما أصاب من المدينة وأهلها وانكفأ راجعا إلى العراق .

* * *

## ٢ — النسوة اللاتى أشرن على بنت الملك بالتزوج :

كان قيل من أقيال حمير مُنع الولد دهرا ، ثم ولدت له بنت فبنى لها قصرا منيفا بعيدا عن الناس ، ووكل بها نساء من بنات الأقيال يخدمنها ، ويؤدبنها حتى بلغت مبلغ النساء ، فنشأت أحسن منشأ وأتمه فى عقلها وكمالها ، فلما مات أبوها ملكها أهلُ مخلافها فاصطنعت النسوة اللاتى ربينها وأحسنت إليها ، وكانت تشاورهن ولا تقطع أمراً دونهن ، فقلن لها يوما :

يا بنت الكرام لو تزوجت لتم لك الملك ، فقالت : وما الزوج ؟ فقالت إحداهن: الزوج عز فى الشدائد ، وفى الخطوب مساعد ، إن غضبت عطف ، وإن مرضت لطف ، نعم الشيء هذا ! فقالت الثانية : الزوج شعارى حين أصرد ، وأنسى حين أفرد . فقالت : إن هذا لمن كمال طيب العيش . فقالت الثالثة : الزوج لما عنانى كاف ، ولما شفنى شاف يكفينى فقد الإلاف ، ريقه كالشهد ، وعناقه كالخلد لا يمل قرانه ، ولا يخاف حرانه .

فقالت : أمهلننى أنظر فيما قلتن . فاحتجبت عنهن سبعا ، ثم دعتهن فقالت : قد نظرت فيما قلتن ، فوجدتنى أملكه رقى ، وأبثه باطلى وحقى . فإن كان محمود الخلائق ، مأمون البوائق فقد أدركت بغيتى ، وإن كان غير ذلك فقد طالت شقوتى ، على أنه لا ينبغى إلا أن يكون كفؤا كريما يسود عشيرته . ويرب فصيلته لا أتقنع به عارا فى حياتى . ولا أرفع به شنارا لقومى بعد وفاتى . فعليكنّ فابغينّه وتفرقن فى الأحياء فأيتكن أتتنى بما أحب فلها أجزل الحباء وعلىَّ لها الوفاء .

فخرجن فيما وجهتهن له ، وكن بنات مقاول ذات عقل ورأى ، فجاءت إحداهن وهى عمرطة بنت زرعة بن ذى خنفر ، فقالت : قد أصبت البغية ، فقالت صفيه ولا تسميه فقالت : غيث فى المحل ، ثمال فى الأزلْ ، مفيد مبيد ، يصلح النائر ، وينعش العاثر ، ويغمر الندى ، ويقتاد الأبى ، عرضه وافر ، حسبه باهر ، غض الشباب ، طاهر الأثواب ، قالت : ومن هو ؟ قالت : سبرة بن عوال بن شداد بن الهمال . ثم خلت بالثانية فقالت : أصبت من بغيتك شيئاً ؟ قالت : نعم ، قالت : صفيه ولا تسميه ، قالت : مصامص النسب ، كامل الأدب ، غزير العطايا ، مألوف السجايا ، مقتبل الشباب ، خصيب الجناب ، أمره ماض ، وعشيره راض ، قالت : ومن

هو ؟ قالت : يعلى بن هزال بن ذى جدن ، ثم خلت بالثالثة فقالت : ما عندك ؟ قالت : وجدته كثير الفوائد ، عظيم المرافد ، يعطى قبل السؤال ، وينيل قبل أن يستنال ، فى العشيرة معظم ، وفى الندى مكرم ، جم الفضائل ، كثير النواقل ، بذال أموال ، محقق آمال ، كريم أعمام وأخوال ، قالت : ومن هو ؟ قالت : رواحة بن خمير بن مضحى بن ذى هلاله ، فاختارت يعلى بن هزال ، فتزوجته ، فاحتجبت عن نسائه شهرا ، ثم برزت لهن ، فأجزلت لهن الحباء ، وأعطت لهن العطاء(١) .

هاتان قصتان،وسبقت قصة ثالثة أثناء شرح قصيدة زهير بن أبى سلمى وهى قصة زواج بهيسة بنت الحارث بن عوف ، والثلاث من القصص الجاهلى، التى وقعت أحداثها فيه وانتسبت شخصياته إليه ، فلا يستطيع أحد أن يقطع الصلة بينهـا وبين العصر الجاهلى فى زمانها ومكانها ومواقعها وحوادثها وحوارها وبلاغتها ونسقها وبنائها وشخصياتها وأبطالها وأهدافها

---

(١) قيل : ملك ، الشعار : الثوب اللاصق بالجسد ، كفانى الأمر : قام به عنى ، شفنى : أمرضنى ، الشهد : العسل فى الشمع ، حرانه : عدم انقياده ، البوائق : الدواهى ، تقنع العار : أصابه ، الشنار : العيب الفاحش ، عليكنه : الزمنه ، يرب : يسود ، الفصيلة : العشيرة ، ثمال القوم : غياثهم، الأزل : السدة ، يفيد : يجلب المال ، يبيد : يفرقه مروءة ، العاثر : الساقط ، يقتاد : يجر ، الأبى : المترفع عن الضيم ، طاهر الأثواب : نقى النفس ، مصامص النسب : كريم الأصل ، خصيب الجناب : عظيم الخيرات ، المضاء : النفاذ ، المرافد : الفضل ، النوافل : الغنائم ، الحباء : العطاء ، المقاول : الوزراء ، المخلاف : الرعية التى تحكم بخلفاء يخلف أحدهما الآخر .

واتجاهاتها وهذه الخصائص ترد دعوى باطلة يزعمها بعض النقاد وهى أن الأدب الجاهلى خلا من القصة ولم يوجد فيها هذا النمط النثرى مثل الخطب والوصايا والحكم والأمثال ولم يثبتون بعضها وينفون البعض ؟ ألم تكن الخطب والوصايا وغيرها فنونا نثرية تشبه القصة عند العرب ؟ وكل ألوان النثر فى العصر الجاهلى بما فيه القصة عندهم تختلف اختلافا كثيرا عن منهجها فى العصور الإسلامية والعصر الحديث ، لأن لكل عصر طابعه الذى به يتميز النثر الأدبى ، ونفى القصة بطابعها الجاهلى عن فنون النثر الأدبى بعيد كل البعد بل يتعارض مع إثبات الفنون الأخرى ، فالعربى كانت له مشاعره وأحاسيسه ومغامراته وبطولاته وحروبه وأيام العرب التى اشتهرت بينهم بالمعارك الضارية ، وعلاقاتهم الإنسانية والاجتماعية ، كما أن له خيالاته وتصوراته وهذا يدعو لأن يتناول القصة فى مجالاتها السابقة كما يقول الخطب والوصايا فيقص عن الكهانة والعرافة ، وقد جمع الرواة بعض ألوانها فى كتب التراجم والتراث ، وإذا كان الشعر وهو المحفوظ القريب إلى النفس قد ضاع معظمه ولم يبق إلا القليل ، فما بالك بالنثر الأدبى ، وهو من العسير حفظه وتناقله ؟ إنه قد ضاع مجموعه ولم يبق إلا النادر منه .

أما دعوى بأن العربى مطبوع على الإيجاز لا الإطناب والبسط ، وأن أيامه وحروبه حقائق تغنيه عن خيال القصة ، وإن الأمية كانت مانعاً من تأليف القصة ، فهذه كلها افتراضات مردودة تحتاج إلى أدلة قوية ، ووثائق تنفى وجود القصه فى العصر الجاهلى .

فأما دعوى أن العربى مطبوع على الإيجاز فغير مقبولة ، لأنه يعرف الإيجاز والإطناب معا ، ولكل مقام مقال عنده ، فقد اتصف العرب من

بين الشعوب بالبلاغة وتميزوا بها عن غيرهم ، والبلاغة فى أوجز عبارة هى كما يقولون : لكل مقام مقال :

وأما دعواهم بأن حقائق العربى وأيامه تصرفه عن خيال القصة ، فغير مقبوله أيضاً ، لأن القصة لا يلزم فيها الخيال ، بل قد تعتمد على الخيال والوهم ، وقد تعتمد على الحقائق وما يقع فعلا ، كالشأن فى الاتجاه الواقعى للقصة الحديثة ، والقصة الجاهلية تأخذ النمط الحقيقى ، التى تقوم الأحداث فيها على حقائق وقعت غالبا ، وأحياناً تقوم على الخيال والوهم أيضاً ، مثل قصص العرافة والكهانة مما تقوم فيه الأحداث على الرجم بالغيب ، فيذهب فيها العقل والخيال والوهم كل مذهب .

وأما دعوى الأمية فغير مقبولة أيضا ، فقد كان فيهم من يقرأ ويكتب وإن كانوا قلة وإن لم يحفظوا النثر بالكتابة ، فليس ببعيد أن يحفظوها كما حفظوا الشعر بالرواية حتى جاء عصر التدوين فدونوها ، كما دون الشعر ووصل القليل منه ، وليصل النثر إليهم بدرجة أقل من الشعر وهو البقية الباقية ، التى يتداولها الكتاب اليوم من كتب التراث القديم .

وأما الحقيقة لوجود القصة فى العصر الجاهلى فلا تعتمد على الأدلة السابقة فى الرد على الدعاوى المزعومة فحسب ، ولكن الأهم من ذلك ألا ننظر إلى القصة الجاهلية بمنظار آخر العصر ، فلا يصح أن ننظر إليها بمنظار القصة الإغريقية أو الرومية أو الفارسية أو الهنديه فى القديم ، لأن لكل شعب طبيعته الخاصة به ، فى الفكر والمشاعر ، والحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والحضارية والعلمية ، فطبيعة الأمة فى العصر الجاهلى يتناسب معها هذا البناء من القصص الجاهلى فى شكله وفى مضمونه ، وهو ما يتلاءم مع طبيعة الإنسان فى عصره ، الذى يتأبى

عليه أى اتجاه آخر يصور طبيعة أخرى تتلاءم مع غير العربى فى العصر القديم ، فالقصة الهندية أو الرومانية تتناسب مع طبيعة الرجل الهندى أو الرجل الرومانى ، ولا أدل على ذلك من تحول القصة العربية الجاهلية إلى صورة جديدة تتمثل فى المقامات الهمذانية حين اتسع أفق الثقافة والحضارة للعقل العربى وأصبحت القصة العربية تتخذ شكلا آخر يتناسب مع طبيعة الإنسان العربى فى العصر الإسلامى العباسى فى ظل حضارة إسلامية عربية جديدة .

وكذلك لا يصح أن ننظر إلى القصة الجاهلية بمنظار القصة فى العصر الحديث التى تلتزم بعناصر أساسية وخصائص فنية تقوم عليها فى إطار فنى متكامل نبع من ظروف العصر وحضارته العميقة فى شتى الجوانب العلمية والفكرية والفلسفية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والمذهبية ، وهذه لا تتفق بحال مع ظروف العصر الجاهلى ونظامه القبلى البدوى ، فالواقع يفرض على القصة الجاهلية أن تكون على هذا النمط التراثى الذى ورد إلينا عن طريق الرواة فى كتب التراث العربى الخالد ، بهذا لا نحمل الأدب فوق ما يحتمل ، ولا نلزمه بمقاييس لا تلزمه ولا تتفق مع طبيعته فى العصر الجاهلى .

أما خصائص القصة فى العصر الجاهلى فتقوم على دعائم من أهمها :

١ — تقوم على حقائق موضوعية نقلت إليها مع واقع الحياة غالباً وذلك فى قصص أيام العرب ، والزواج ، والحروب والنساء ، أما قصص العرافة والكهانة فإنها تقوم على التخمين أو ادعاء الغيب أو الرجم بالمجهول .

٢ — الشخصيات فى القصة الجاهلية قليلة إلى حد بعيد ، فتجدها فى قصة بهيسة خمسة ، وفى قصة الزباء أربعة أشخاص ، وفى قصة بنت ملك حمير أربعة تقريبا وهكذا فى معظم القصص الجاهلى .

٣ — تقوم على أسلوب السرد والحكاية أحيانا، وقد يجتمع السرد مع الحوار فى قصة واحدة على سبيل التنوع ، وحوار شائق يثير القارىء و ينشط عقله وعاطفته .

٤ — تتميز الجمل بالقصر، فالتراكيب محدودة فى فقرات قصيرة ينتقل معها القارىء فى خفة وهدوء .

٥ — يغلب على القصة التعبير الروائى بالقول المتكرر ، الذى تكاد تراه فى كل فقرة من الفقرات أثناء الحوار، والتعبير بالقول يلقى ظلا ثقيلا على التلاحم القصصى بين الأحداث ، ولذلك تخلت عنه القصة الحديثة ، حيث يدرك القول بالبداهة والسياق لا بذكره وتكراره على صفحات القصة .

٦ — الحبكة فى القصص الجاهلى لا تعتمد على المفاجأة أو حدوث ما لا يقع فى الخاطر ، أو يذهب بعيدا فى الخيال ، ولكن القارىء يكاد يتوقع الأحداث قبل أن يصل إليها .

٧ — لابد أن تنتهى القصة الجاهلية بالحل الواضح نتيجة لأحداثها ، فلا يحتاج من القارىء إلى طول نظر أو تأمل ، أو يترك فيبحث عن الحل وحده ؛ لأنها لا تكون بغير حل ، على خلاف القصة حديثا فيترك القارىء فيها يفتش عن الحل فى القصة .

٨ — تجمع القصة كثيراً من الحكم والأمثال العربية ، التى تصير بعد ذلك أمثالا يضرب بها فى مقامها المناسب .

٩ — الغاية والهدف فيها مقصور على حياة الإنسان الجاهلى فى عصره فهو تصوير حقيقى دقيق للحياة القبلية والبدوية فى العصر الجاهلى .

١٠ — من أبرز خصائصها الفنية الإيجاز وعدم التفصيل فى الأحداث

والبسط فيها ، كما أنها أيضاً لا تهتم بأغوار الشخصية وماورا الظاهر فيها ، بل تقتصر على رسم الإطار الخارجى فقط من غير تسلل إلى أعماقها وما وراء الظاهر غالبا .

## أدب المنافرات :

منافرة عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة : لما أسن أبو براء عامر بن مالك تنازع فى الرياسة عامر بن الطفيل ، وعلقمة بن علاثة بن الأحوص فقال علقمة : كانت لجدى الأحوص ، وإنما صارت لعمك بسببه ، وقد قعد عمك عنها، وأنا أسترجعها فأنا أولى بها منك ، فشرى الشر بينهما وسارا إلى المنافرة فقال علقمة : إن شئت نافرتك ، فقال عامر : قد شئت والله إنى لأكرم منك حسبا ، وأثبت منك نسبا ، وأطول منك قصبا .

فقال علقمة : والله لأنا خير منك ليلا ونهاراً ، فقال عامر : والله لأنا أنحر منك للقاح وخير منك فى الصباح وأطعم منك فى السنة الشياح ، فقال علقمة : أنا خير منك أثرا وأحد منك بصرا وأعز منك نفرا وأشرف منك ذكرا . فقال عامر : ليس لبنى الأحوص فضل على بنى مالك فى العدد ، وبصرى ناقص وبصرك صحيح ولكنى أنافرك ؛ إنى أسمى منك سمة وأطول منك قمة وأحسن منك لمة وأجعد منك جمة وأسرع منك رحمة وأبعد منك همة .

فقال علقمة : أنت رجل جسيم وأنا رجل قطيف ، وأنت جميل وأنا قبيح ، ولكنى أنافرك بآبائى وأعمامى . فقال عامر : آباؤك أعمامى ولم أكن لأنافرك بهم ، لكنى أنافرك أنا خير منك عقبا وأطعم منك جدبا . فقال علقمة : قد علمت أن لك عقبا قد أطعمت طيبا ، ولكنى أنافرك إنى خير

منك وأولى بالخيرات منك . وخرجت أم عامر وكانت تسمع كلامهما فقالت : ياعامر نافره أيكما أولى بالخيرات . قال عامر : والله إنى لأركب منك فى الحماة وأقتل منك للكماة وخير منك للمولى والمولاة . فقال علقمة: والله إنى لبر وإنك لفاجر ، وإنى لولود وإنك لعاقر ، وإنى لعف وإنك لعاهر ، وإنى لوفى وإنك لغادر ففيم تفاخرنى ياعامر ؟ فقال عامر : والله إنى لأنزل منك للقفرة وأنحر منك للبكرة وأطعم منك للهبرة وأطعن منك للثغرة . فقال علقمة ، والله إنك لكليل البصر نكد النظر .

فقال بنو خالد بن جعفر وكانوا يداً مع بنى الأحوص على بنى مالك بن جعفر : لن تطيق عامرا ولكن قل له : أنافرك بخيرنا وأقربنا إلى الخيرات ، فقال له علقمة هذا القبول ، فقال عامر : عير وتيس ، وتيس وعنز ، نعم على مائة من الإبل إلى مائة من الإبل يعطاها الحكم ، أينا نفر عليه صاحبه أخرجها ففعلوا ذلك ، ووضعوا بها رهنا من أبنائهم على يد رجل يقال له خزيمة بن عمرو : فسمى الضمين .

وخرج علقمة ومن معه من بنى خالد ، وخرج عامر فيمن معه من بنى مالك وجعلا منافرتهما إلى أبى سفيان بن حرب بن أمية فلم يقل بينهما شيئاً وكرة ذلك لحالهما وحال عشيرتهما وقال : أنتما كركبتى البعير الأدرم . قالا ، فأينا اليمين ؟ قال ، كلا كما يمين وأبى أن يقضى بينهما ، فانطلقا إلى أبى جهل بن هشام فأبى أن يحكم بينهما وقد كانت العرب تحاكم إلى قريش فأتيا عيينة بن حصن بن حذيفة ، فأبى أن يقول بينهم شيئاً فأتى غيلان بن سلمة الثقفى فردهما إلى حرملة بن الأشعر المرى ، فأبى أن يقول شيئاً ، ثم تداعيا إلى هرم بن قطبة ليحكم بينهما ، فرحلا إليه ومع كل واحد منهما ثلاثمائة من الإبل ، مائة يطعمها من تبعه ومائة يعطيها للحاكم ومائة تعقر إذا حكم ،

فأبى هرم بن قطبة أن يحكم بينهما مخافة الشر وأبيا أن يرتحلا ، فقال هرم: لعمرى لأحكمن بينكما ثم لأفصلن فأعطيانى موثقا أطمئن إليه أن ترضيا بما أقول وتسلما لما قضيت بينكما وأمرهما بالانصراف ووعدهما يوما فانصرفا حتى إذا بلغ الأجل خرجا إليه وأقام القوم عنده أياما .

فخلا هرم بعلقمة ، وقال له : أيرجو أن ينفرك رجل من العرب على عامر فارس مضر ، أندى الناس كفا ، وأشجعهم لقاء ، لسنان رمح عامر أذكر فى العرب من الأحوص وعمه ملاعب الأسنة . فقال له علقمة : أنشدتك الله والرحم أن لاتنفر علىّ عامرا اجزز ناصيتى ، واحتكم فى مالى، وإن كنت لابد أن تفعل فسو بينى وبينه ، فقال : انصرف ، فسوف أرى رأيى ، فخرج وهو لا يشك أنه سيفضل عليه عامرا .

ثم خلا بعامر فقال له : أعلى علقمة تفخر ، أنت تناوئه ، أعلى ابن عوف الأحوص أعف بنى عامر ، وأيمنهم نقيبة ، وأحلمهم وأسودهم ، وأنت أعور عاقر مشئوم ، أما كان لك رأى يزعك عن هذا ، أكنت تظن أن أحد من العرب ينفرك عليه؟ فقال عامر : أنشدتك الله والرحم ألا تفضل على علقمة فوالله إن فعلت لأفلح بعدها أبداً ، هذه ناصيتى فأجززها ، واحتكم فى مالى ، فإن كنت لا بد فاعلا فسو بينى وبينه قال : انصرف فسوف أرى رأيى . فخرج عامر وهو لا يشك أنه ينفره عليه .

ثم إن هرما أرسل إلى بنيه ، وبنى أخيه : إنى قائل غدا بين هذين الرجلين مقالة ، فإذا فعلت فليطرد أحدكم عشر جزائر ، فلينحرها عن علقمة ، ويطرد بعضكم عشر جزائر ينحرها عن عامر ، وفرقوا بين الناس لاتكون لهم جماعة ، فلما اجتمعا وحضر الناس للقضاء قام هرم وقال : يا بنى جعفر قد تحاكمتما عندى وأنتما كركبتى البعير الأدرم ، تقعان إلى الأرض معاً ،

وليس فيكما أحداً إلا وفيه ما ليس فى صاحبه وكلا كما سيد كريم .

وعمد بنو هرم وبنو أخيه إلى تلك الجزر فنحروها حيث أمرهم هرم ، وفرقوا الناس ولم يفضل هرم أحداً منهما على صاحبه ، وكره أن يفعل — وهما ابنا عم — فيجلب بذلك عداوة ويوقع بين الحيين شراً (١) .

أدب الحوار فى النثر الجاهلى :

أشرف أحد ملوك حمير ومقاولها على الفناء وبعد أن طال عمره وبعد أن أدب ولديه عمراً وربيعة وبلغ كل منهما فى الأدب والعلم والخلق درجة رفيعة فدعاهما فى حوار أدبى حتى تقر عينه وتطيب نفسه فقال لابنه الأكبر عمرو :

أخبرنى عن أحب الرجال إليك وأكرمهم عليك فقال : السيد الجواد القليل الأنداد — الماجد الأجداد — الراسى الأوتاد — الرفيع العماد — العظيم الرماد — الكثير الحساد — الباسل الذواد — الصادر الوارد .

---

(١) المفاخرة : تفاخر القوم بعضهم على بعض بالمآثر والمناقب ، والمنافرة : هى التحاكم إلى الأشراف فى المفاخرة للقضاء بين المتنافرين ، عامر بن الطفيل فاتك فارس ، وفد على رسول الله ولم يسلم ومات فى طريقه سنة إحدى عشرة من الهجرة ، وعلقمة أسلم وارتد فى حركة الردة وعاد إلى الأسلام وتوفى سنة عشرين هجرية ، شرى : استطار ، اللقاح : الإبل ، الشياح : القحط ، اللمة : ما جاور شحمة الأذن من الشعر ، الجمة : ملتقى شعر الرأس ، فضيف : نحيف ، عاقر : لا ولد له ، القفار : الخلاء ، البكرة : الفتية من الإبل ، الهبرة : ما اجتمع من اللحم ، العير : حمار الوحش ، فالعير أقوى من التيس ، والتيس أقوى من العنز ، الادرم : إذا وارى اللحم العظام فلم يظهر ، جزائر : جمع جزور وهى الإبل .

فقال : ما تقول ياربيعة ؟ فقال: ما أحسن ما وصف ! وغيره أحب إلىّ منه قال: ومن يكون بعد هذا ؟ قال : السيد الكريم - المانع للحريم - المفصال الحليم — القمقام الزعيم . . الذى إن هم فعل ، وإن سئل بذل .

قال : أخبرنى ياعمرو بأبغض الرجال ، فقال : البرم اللئيم ، المستخذى للخصيم ، المبطان النهيم ، العي البكيم . . إن سئل منع ، وإن هدد خضع ، وإن طلب جشع .

فقال ما تقول يا ربيعة ؟ قال غيره أبغض منه ، قال : ومن هو ؟ قال : اللئوم الكذوب ، الفاحش الغضوب ، الرغيب عند الطعام ، الجبان عند الصدام .

قال أخبرنى يا عمرو أى النساء أحب إليك ؟ قال : الهركولة اللفاء ، الممكورة الجيداء التى يشفى السقيم كلامها ويبرىء الوصب إلمامها التى إن أحسنت إليها شكرت وإن أسأت إليها صبرت، وإن اعتبتها أعتبت الفاترة الطرف الطفلة الكف العميمه الردف .

فقال : فما تقول يا ربيعة ؟ قال : نعت عمرو فأحسن وغيرها أحب إليها منها . قال : ومن هى ؟ قال : الفتانة العينين الأسيلة الخدين الكاعب الثديين الرداح الوركين . الشاكرة للقليل المساعدة للخليل الرخيمة الكلام الجماء العظام . الكريمة الأخوال والأعمام . العذبة الثام .

قال :فأى النساء أبغض إليك ياعمرو؟ فقال : القتاتة الكذوب الظاهرة العيوب الطوافة الهبوب العابسة القطوب السبابة الوثوب التى إن ائتمنها زوجها خانته وإن لان لها أهانته وإن أرضاها أغضبته وإن أطاعها عصته .

قال : فما تقول يا ربيعة ؟ قال بئس والله المرأة ذكر ! وغيرها أبغض

إلى منها قال : وأيتهن أبغض إليك من هذه قال : السليطة اللسان المؤذية للجيران الناطقة بالبهتان . . وجهها عابس وزوجها من خيرها آيس . إن عابها زوجها وترته . . وإن ناطقها إنتهرته . ثم قال ربيعة وغيرها أبغض إلى منها . قال أبوه : ومن هي؟ قال : التي شقي صاحبها ، وخزي خاطبها ، وافتضح أقاربها ، قال : ومن صاحبها ؟ قال : الكفور غير الشكور ، اللئيم الفجور ، العبوس الكالح الحرون الجامح ، الراضي بالهوان ، المختال المنان ، الضعيف الجبان ، الجعد البنان القؤول غير الفعول ، الملول غير الوصول ، لا يرع عن المحارم ، ولا يرتدع عن المظالم .

قال : أخبرني يا عمرو أي الخليل أحب إليك عند الشدائد إذا التقى الأقران للتجالد قال : الجواد الأنيق ، الحصان العقيق ، الكفيت العويق ، الشديد الوثيق ، الذي يفوت إذا هرب ، ويلحق إذا طلب . قال : نعم الفرس والله التي نعت .

قال : فما تقول يا ربيعة ؟ قال غيره : أحب إلى منه قال : وما هو ؟ قال : الحصان الجواد السلس القياد ، الشهم الفؤاد ، الصبور إذا سرى ، السابق إذا جرى .

قال : فأي الخيل أبغض إليك ياعمرو؟ قال : الجموح الطموح ، النكول الأنوح الصئول الضعيف ، الذي إن جاريته سبقته ، وإن طلبته أدركته .

قال : فما تقول يا ربيعة ؟ قال غيره أبغض إلى منه ! ! قال : وما هو ؟ قال البطىء الثقيل الحرون الكليل ، إذا ضربته قمص ، وإن دنوت منه شمس يدركه الطالب ويفوته الهارب ، ويقطع بالصاحب ، ثم قال ربيعة : وغيره أبغض إلى منه . قال : وما هو ؟ قال الجموح الخبوط ، الركوض الخروط ، الشموس الضروط ، القطوف في الصعود والهبوط الذي لا يسلم الصاحب ولا ينجو من الطالب .

قال . أخبرني يا عمرو أى العيش ألذ ؟ قال عيش فى كرامة ، ونعيم وسلامة ، واغتباق مدامة .

قال : ماتقول أنت ياربيعة قال : نعم العيش والله الذى وصف وغيره أحب إلى منه ، قال : وما هو ؟ قال : عيش فى أمن ونعيم وعز وغنى عميم فى ظل نجاح وسلامة مساء وصباح .. وغيره أحب إلى منه ، قال : وما هو؟ قال : غنى دائم وعيش سالم وظل ناعم قال : فما أحب السيوف إليك يا عمرو ؟ قال : الصقيل الحسام ، الباتر الخدام ، الماضى السطام ، المرهف الصمصام ، الذى إن هززته لم يكب ، وإذا ضربت به لم ينسب .

قال : ماذا تقول ياربيعة ؟ قال : نعم السيف الذى نعت وغيره أحب إلى منه قال : وما هو ؟ قال : د الحسام القاطع ذو الرونق اللامع، الظمآن الجائع ، الذى إن هززته هتك ، وإذا ضربت به بتك .

قال : فما أبغض السيوف إليك يا عمرو ؟ قال : الفعار الكهام ، الذى ان ضرب به لم يقطع ، وإن ذبح به لم ينخع .

قال : فما تقول ياربيعة ؟! قال : بئس السيف والله الذى ذكر ، وغيره أبغض إلى منه ، قال : وما هو ؟ قال الطبع الدهان ، المعضد المهان .

قال : فأخبرني يا عمرو . . أى الرماح أحب إليك عند المراس ، إذا اعتكر الباس ، واشتجر الدعاس !! قال : أحبها إلى المارن المثقف ، المقوم المقوم، المخطف الذى إذا هززته لم ينعطف ، وإذا طمنت به لم ينقصف .

قال : فما تقول يا ربيعة ؟ قال : نعم الرمح نعت وغيره أحب إلى منه قال : وما هو ؟

قال : الذابل العسال ، المقوم النسال ، الماضى إذا هززته ، الناقد إذا همزته .

قال : فأخبرنى يا عمرو عن أبغض الرماح إليك ؟ قال : الأعصل عند الطعان ، المثلم السنان ، الذى إذا هززته انعطف ، وإذا طعنت به انقصف .

قال : فما تقول يا ربيعة ؟ قال : بئس الرمح الذى ذكر ، وغيره أبغض إلى منه .. قال : وما هو ؟ قال : الضعيف المهز ، اليابس الكز الذى إذا أكرهته انحطم ، وإذا طعنت به انقصم .

ثم قال الأب بعد أن سمع تلك الإجابات : انصرفا .. الآن طاب لى الموت(١) .

---

(١) القمقام : الرئيس ، البرم : البخيل الذى لا يحضر الميسر ، الهركولة : المرتجة الأرداف ، الوصب : المريض ، الطفلة : الناعمة ، العميمة : الضخمة ، أسيل : جميل ، الرداح : كبيرة الردف ، الجماء : صغيرة العظم ، اللثام : الشفتان ، القتانة : النمامة ، الهبوب : الثائرة ، الوثوب : تسرع إلى الشر ، الحرون : لا يسترشد بالغير ، الجعد : المتثنى ، الكفيت : السريع ، الوثيق : القوى ، الشهم : الذكى الجلد ، النكول : الذى يتأخر عن أقرانه ، الأنوح : ما يتنفس بضيق وعنف ، الصئول : الصهيل ، القمص : رفع الجسم من الخلف ، شمس : امتنع ، الخروط : ينزع الرسن من سائسه ، الضروط : كثير الأرياح ، القطوف : الضيق الخطوات ، السطام : الحد ، هتك : مزق ، بتك : قطع ، الفطار : الحديث الناقص ، الكهام : الضعف ، الطبع : الذى علاه الصدأ ، الددان : الذى لا يقطع ، المعضد : ما يستعمل فى قطع الشجر ، المخطف : ما دق صنعه ، الدعاس : الطعن العنيف ، العسال : المضطرب ، الكز : اليابس .

## أدب الحكم والأمثال :

اشتهر العرب بحكمهم وأمثالهم التى ما زالت تعبر عن خبرتهم بالحياة وعمق تجاربهم بأحداثها ففاضت ألسنتهم بالحكمة والمثل .

فالحكمة :

هى المعرفة التى ترشد الإنسان إلى الخير ، وتمنعه عن الجهل والسفه فهى قول موجز يضم حكما مسلما فى الحث على الخير ، والنهى عن الشر فى أسلوب موجز بليغ يكشف عن خبر بالحياة ، وتجربة بشئونها ، وتكون شعراً ونثراً ، وإذا ذاعت الحكمة وانتشرت على الألسنة أصبحت مثلا يضرب بها فى مناسبتها .

وأشهر حكماء العرب لقمان عاد ، عاش طويلا ومن حكمه : « رب أخ لك لم تلده أمك » . يقول الجاحظ « والعرب تعظم شأن لقمان بن عاد فى النباهة والقدر وفى العلم والحكم وفى اللسان وفى الحلم ، وهو غير لقمان الحكيم المذكور فى القرآن الكريم على ما يقول المفسرون .

ومن حكمائهم أكثم بن صيفى ، وذو الإصبع العدوانى وعامر ابن الظرب ، وقس بن ساعدة .

ومن حِكَمهم : الصمت حُكم وقليل فاعله — آخر الدواء

الكى — العتاب قبل العقاب — كلم اللسان أنكى من كلم السنان — اترك الشر يتركك — من مأمنه يؤتى الحذر — انجز حر ما وعد .

## والمثـــل :

هو قول محكم موجز سائر يتمثل به فى مواقف تتفق ومغزاه ؛ وذكر الميدانى فى مجمع الأمثال : أنه قول سائر يشبه به حال الثانى بالأول . وذكر المبرد فى الكامل : أنه قول سائر شبه مضربه بمورده ، أو قول شبه فيه حال المقول فيه ثانيا بحال المقول فيه أولا ؛ وذكر المرزوقى : هو جملة مقول تتسم بالقبول وتشتهر بالتداول ؛ فتتنقل عما وردت منه إلى كل ما يصح قصده منها من غير تغيير يلحقها فى لفظها .

## أسلوبه ومعانيه :

قال إبراهيم النظام : يجتمع فى المثل أربعة لا تجتمع فى غيره ؛ حسن الكلام ، وإيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه وجودة الكناية .

وخصائص الأسلوب فى المثل هى :

١ — الإيجاز فى اللفظ .

٢ — إصابة المعنى ودقته .

٣ — شرف الهدف ونبله .

٤ — صدق تمثيله لمشاهدة الحياة .

٥ — الاعتماد على التصوير البيانى من تشبيه أو استعارة أو كناية .

٦ — إذا ذاعت الحكمة أصبحت مثلا .

٧ — أن يكون قريباً إلى القلب .

٨ — أن يكون مقبولا لدى الذوق .

٩ — أن يخاطب الشعور والوجدان كما يخاطب الفكر والعقل .

١٠ — منه ما يكون نثراً ، ويكون شعراً .

١١ — وهو نوعان : حقيقى وهو ما نسب إلى قائله ، وفرضى وهو ما تخيله القائل على لسان حيوان أو جماد .

١٢ — أن المثل لا يغير .

١٣ — من العسير التمييز بين الأمثال فى كل عصر اللهم إلا إذا كانت به قرينة لفظية تدل على عصره أو حالية من الأخبار التى تصاحبه فى الذكر .

ومن أشهرهم فى ضرب الأمثال ما سبق ذكرهم فى الحكمة وغيرهم مثل : زهير بن أبى سلمى ، الحارث بن سليل الأسدى وبيهس الملقب بنعامة ، وعوف بن محلم بن ذهل شيبان ، وجذيمة الأبرش .

## الأمثـال (١) :

١ ــ الحديث ذو شجون .

القائل : هو ضبة بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر .

مورد المثل : ذكر المفضل الضبي أن ضبة كان له ابنان ، يقال لأحدهما سعد وللآخر سعيد ، فنفرت إبل ضبة تحت الليل ، وهما معا نخرجا يطلبانها ، فتفرقا في طلبها ، فوجدها سعد ، وأما سعيد فذهب ولم يرجع ، فجعل ضبة يقول بعد ذلك إذا رأى سواداً تحت الليل : أسعد أم سعيد . فذهبت مثلا . ثم أتى على ذلك ما شاء الله لا يجيء سعيد ، ولا يعلم له خبر ثم إن ضبة بعد ذلك بينما هو يسير والحارث بن كعب فى الأشهر الحرم ، وهما يتحدثان ، إذ مرا على سرحة بمكان فقال له الحارث : أترى هذا المكان ، فإنى قد لقيت فيه شابا من هيئته كذا وكذا فوصفه وسيفا كان عليه . فقال له ضبة : ما صفة السيف ؟ قال : ها هو ذا على . قال : فأرنيه فأراه إياه فعرفه ضبة ، ثم قال : إن الحديث ذو شجون فذهبت مثلا فضربه به حتى قتله فلامه الناس فقالوا أقتلت رجلا فى الأشهر الحرم ، فقال ضبة : سبق السيف العذل فأرسلها مثلا .

مضرب المثل : يضرب فى الأحاديث التى تتشعب منها أحاديث أخرى

---

(١) فى كتب الأمثال منها : مجمع الأمثال للميدانى ، وجمهرة الأمثال للعسكرى ، والنصوص الأدبية د . عبد الغنى إسماعيل . والحياة الأدبية د . محمد عبد المنعم خفاجى .

وهكذا كل حديث يتذكر به غيره . أما قوله سبق السيف العذل فيضرب للأمر الذى فات ولا ينفع فيه الندم .

٢ — وافق شن طبقة ،

القائل : قاله قوم فى رجل من دهاة العرب يقال له : « شن » .

المورد : قال شن : والله لأطوفن حتى أجد امرأة مثلى فأتزوجها ، فبينما هو فى بعض مسيره إذ وافقه رجل فى الطريق . فسأله شن : أين تريد ؟ فقال : موضع كذا يريد القرية التى يقصدها شن فرافقه ، فلما أخذا فى مسيرهما قال له شن : أتحملنى أم أحملك ؟ فقال له الرجل : يا جاهل أنا راكب وأنت راكب ، فكيف أحملك أو تحملنى ؟ فسكت عنه شن ، وسارا حتى إذا قربا من القرية إذا هما بزرع قد استحصد ، فقال له شن : أترى هذا الزرع أكل أم لا ؟ فقال له الرجل : ياجاهل ترى نبتا مستحصدا فتقول : أتراه أكل أم لا ؟ فسكت عنه . حتى إذا دخلا القرية لقيتهما جنازة ، فقال شن : أترى صاحب هذا النعش حيا أم ميتا ؟ فقال له الرجل ما رأيت أجهل منك ترى جنازة فتسأل عنها أميت صاحبها أم حى ؟ فسكت عنه شن وأراد مفارقته ، فأبى الرجل أن يتركه حتى يصير به إلى منزله ، فمضى معه ، وكان للرجل ابنة يقال لها : طبقة ، فلما دخل عليها أبوها سألته عن ضيفه فأخبرها بمرافقته إياه ، وشكا إليها جهله وحدثها بحديثه ، فقالت : يا أبة ما هذا بجاهل . أما قوله : أتحملنى أم أحملك ؟ فأراد أتحدثنى أم أحدثك حتى نقطع طريقنا . وأما قوله : أترى هذا الزرع أكل أم لا ؟ فإنما أراد : أباعه أهلوه فأكلوا ثمنه أم لا . وأما قوله فى الجنازة : فأراد هل ترك عقبا يحيا بهم ذكره أم لا ؟ فخرج الرجل فقعد مع

شن لحادثه ساعة . ثم قال له : أتحب أن أفسر لك ما سألتنى عنه ؟ قال : نعم ، ففسره . فقال شن : ما هذا من كلامك فمن صاحبه ؟ قال ابنة لى ، فخطبها فزوجه إياها ، فلما رأوهما قالوا ، وافق شن طبقة .

المضرب : يضرب مثلا للمتوافقين .

٣ — رب عجلة تهب ريثا .

القائل : مالك بن عوف الشيبانى .

المورد : كان شيبان بن مالك نظر غيثا ، فأراد أن يرحل بامرأته ، فقال له أخوها : أين تظعن بأختى ؟ قال : أطلب موقع هذه السحابة . قال : لا تفعل فإنها ربما خيلت ، وليس فيها قط ، وأنا أخاف عليك بعض صعاليك العرب ، فمضى وعرض له مروان القرظ ، فأخذها منه ورجع شيبان من غيرها . فقال له أخوها : ما فعلت أختى ؟ قال : نفتنى عنها الرماح ، فقال مالك بن عوف الشيبانى : رب عجلة تهب ريثا . ورب فروقة يدعى ليثا ، ورب غيث لم يكن غيثا . فذهب قوله مثلا .

المضرب : يضرب للرجل يشتد حرصه على حاجة فيخرق فيها حتى تذهب كلها .

٤ — رمتنى بدائها وانسلت .

القائل : امرأة من العرب زوج سعد بن زيد مناة .

المورد : كان سبب هذا المثل أن سعد بن زيد مناة تزوج رُهْم ابنة الخزرج من كلب بن وبرة — وكانت أجمل النساء — وكانت ضرائرها إذا سابينها يقلن لها : ياعفلا ، فشكت ذلك إلى أمها ، فقالت لها أمها : إذا

سابينك فابد ئيهن بعفال سُبيِت فأرسلتها مثلا . فسابّتها امرأة من ضرائرها فقالت لها رهم : ياعفلا فقالت ضرتها : رمتنى بدائها وانسلت .

المضرب : يضرب المثل لمن يعير صاحبة بعيب هو فيه .

٥ — تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها .

القائل : الحارث بن سليل الأسدى .

المورد : كان الحارث بن سليل حليفا لعلقمة بن خصفة الطائى ، فزاره فنظر إلى ابنته الزباء — وكانت أجمل أهل دهرها — فأعجب بها ، فقال له : أتيتك خاطبا وقد ينكح الخاطب ، وتدرك الطالب ، ويمنح الراغب . فقال علقمة : أنت كف كريم ، يقبل منك الصفو ، ويؤخذ منك العفو ، فأقم ننظر فى أمرك ، ثم انكفأ إلى أمها فقال : إن الحارث بن سليل سيد قومه حسبا ومنصبا وبيتا . وقد خطب إلينا الزباء فلا ينصرفن إلا بحاجته ، فقالت امرأته لا بنتها : أىّ الرجال أحب إليـــك : الكهل الجحجاح ، الواصل المناح ، أم الفتى الوضاح . قالت : لا بل الفتى الوضاح ، قالت : إن الفتى يغيرك وإن الشيخ يميرك ، وليس الكهل الفاضل الكثير النائل كالحديث السن الكثير المن . قالت : يا أمتاه إن الفتاة تحب الفتى كحب الرعاة أنيق الكلا . قالت : أى بنية : إن الفتى شديد الحجاب كثير العتاب قالت : إن الشيخ يبلى شبابى ويدنس ثيابى ويشمت بى أترابى ؛ فلم تزل أمها بها حتى غلبتها على رأيها فتزوج الحارث على مائة وخمسين من الإبل وخادم وألف درهم . فابتنى بها ثم رحل بها إلى قومه . فبينما هو ذات يوم جالس بفناء قومه وهى إلى جانبه إذ أقبل إليه شباب من بنى أسد يعتلجون فتنفست الصعداء ، ثم أرخت عينها بالبكاء فقال لها : ما يبكيك ؟ فقالت: ما لى وللشيوخ الناهضين كالفروخ . فقال لها : أثكلتك أمك تجوع الحرة

ولا تأكل بثديها ... ثم قال الحارث لها . أما وأبيك لرب غارة شهدتها وسبيّة أردفتها وخمرة شربتها ألحقى بأهلك فلا حاجة لى فيك وقال :

تهزأتْ أن رأتنى لا بسا كبرا وغاية الناسِ بين الموت والكبر

فإن بقيت لقيت الشيب راغمة وفى التعرف مايمضى من العبر

وإن يكن قد علا رأسى وغيَّره صرف الزمان وتغييرمن الشعر

فقد أروح للذات الفتى جذلا وقد أصيب بها عينا من البقر

عنى إليك فإنى لا توافقنى
عور الكلام ولا شرب على الكدر

المضرب : يضرب المثل فى صيانة الإنسان نفسه عن خسيس المكاسب .

٦ — لن تعدم الحسنا ذاما .

القائل : هى حبَّى بنت مالك العدوانية .

المورد : كانت حبى جميلة فخطبها مالك بن غسان ، فلما حملها قالت أمها لنسوتها : إن لها عند الملامسة رشحة ، فإذا أردتن إدخالها على زوجها فمسِّحن أعطافها بما فى أصدافها ، فلما أردن ذلك بها أعجلهن زوجها عن تطييبها ، فوجد منها رويحة فلما أصبح قيل له : كيف رأيت طروقتك ؟ قال : لم أرى كالليلة لولا رويحة أنكرتها فقالت من خلف الستر : لن تعدم الحسناء ذماً ، فذهبت مثلا .

المضرب : يضرب مثلا للشىء الفاضل يكون فيه عيب .

* * *

## أدب الوصايا :

والوصية والنصيحة بمعنى واحد ولا تكون إلا لمن يهمه أمر الناصح والموصى ، فتكون من الوالد والأم لأبنائهما وغالبا ماتكون على طريقة الخطبة لكنها تفترق عنها ، لأن الخطبه تكون للقريب وغيره ولكل الناس ، بينما الوصية لا تكون إلا للقريب من العصب والرحم .

وهى تعتمد على تجربة بالحياة ، وخبرة بشئونها ، وتنبىء عن حكمة وإرشاد وتوجيه .

وتمتاز : بجمال أسلوبها ، ورشاقة تعبيرها ، وقصر فقراتها ، مع نفاذ بصيرة وصدق تعبير ، وروعة تصوير ، وثقوب حكمة ، وإصابة غرض .

ومن أشهر الوصايا وصية أوس بن حارثه لابنه مالك يقول فيها : « يا مالك المنية ولا الدنية ، والعتاب قبل العقاب ، والتجلد لا التبلد ، واعلم أن القبر خير من الفقر ، وشر شارب المشتف ، وأقبح طاعم المقتف ، والدهر يومان : يوم لك ويوم عليك ، فإذا كان لك فلا تبطر ، وإن كان عليك فاصبر ، فكلاهما سينحسر » .

ومثل وصايا النعمان بن ثواب العبدى ، وامرأة عوف بن محلم الشيبانى وأكثم بن صيفى ، وزهير بن جناب الكلبى ، وذى الإصبع العدوانى حينما أوصى ابنه فقال :

يا بنى إن أباك قد فنى وهو حى ، وعاش حتى سئم العيش ، وإنى موصيك بما إن حفظته بلغت فى قومك ما بلغته ، ألن جانبك يحبوك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وابسط لهم وجهك يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم

بشيء يسوّدوك ، وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم ، يكرمك كبارهم ، ويُقبِل على مودتك صغارهم، واسمح بمالك ، وأعزز جارك ، وأعن من استعان بك ، وأكرم ضيفك ، وصن وجهك عن مسألة أحد شيئا ، فبذلك يتم سؤددك .

* * *

أدب سجع الكهان :

الكهان : طائفه من العرب تدعى أنها تعلم الغيب وتتنبأ بالمجهول عن طريق الجن الذى يسترقون السمع ويطلعون على ما فى الغيب ، وذلك فى أمر مستبهم أو ضالة مفقودة أو مال ضائع أو حدوث ريب .

والكهانة : هى التعرف على الغيب سواء أكان فى الماضى أو المستقبل ، وكانت موجودة قبل البعثة .

خصائصها :

١ — كانت تفسيراً للأحلام .
٢ — يعرف عن طريقها ما خفى من الحوادث .
٣ — كانت تبشر بميلاد الأنبياء .
٤ — تعتمد على السجع .
٥ — تكثر فيها التعمية والألغاز .
٦ — أسلوبها يبدو فيه التصنع والتكلف .
٧ — الغموض فيها لشيوع الرهبة والخوف من الكهان .

أشهر الكهان :

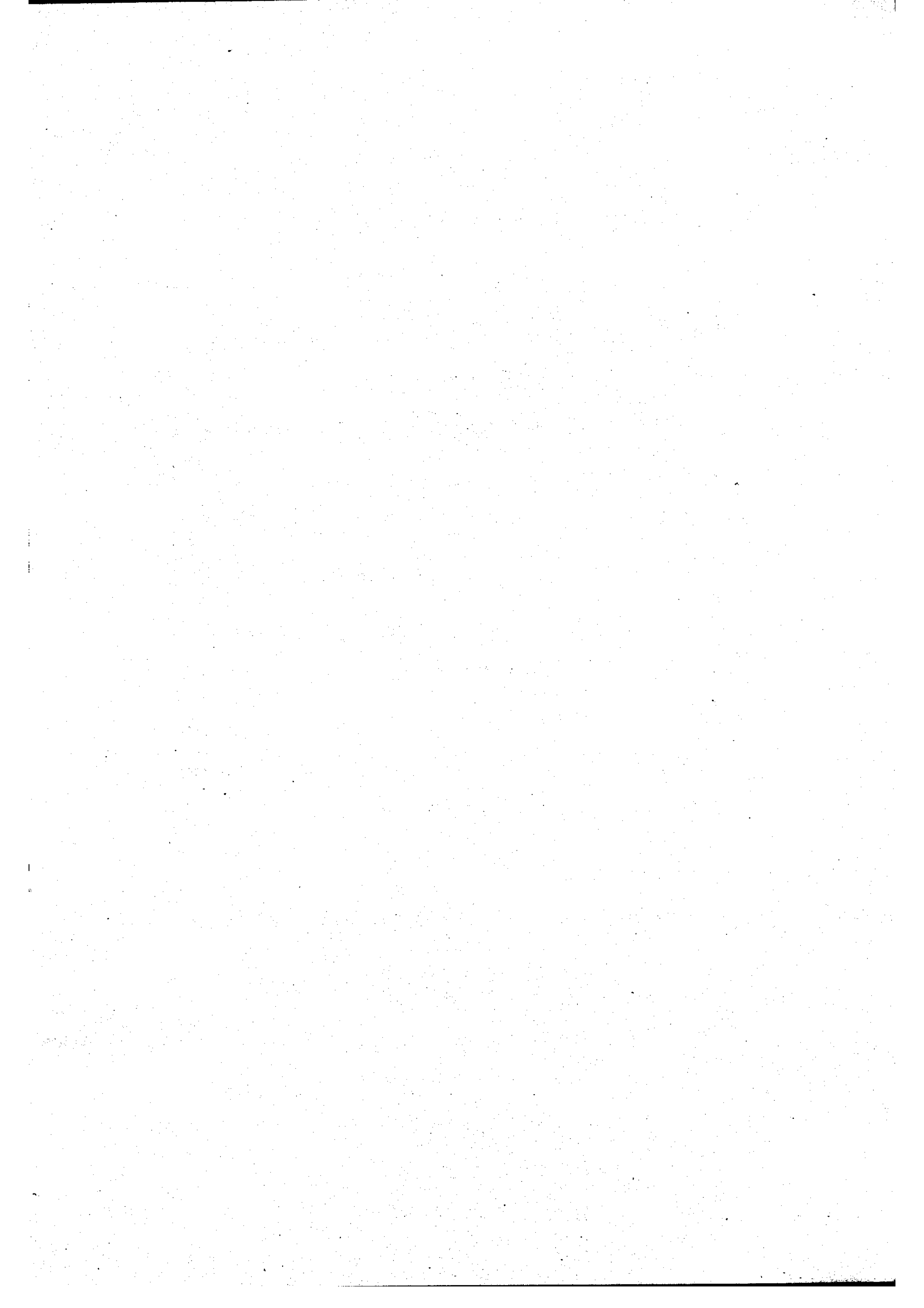
ومن أشهرهم سطيح الذئبي ، وشق أنمار ، وزبراء ، وسود بن قارب ، وطريفة الخير ، وفاطمة الخثعمية .

وقيل : إن سطيحا وشق اتفقا على تعبير رؤيا رآها ربيعة بن نصر اللخمي أحد ملوك العرب وأخبره سطيح باغارة الحبشة على بلاد اليمن إذ قال : أحلف بما بين الحرتين من حنش، ليهبطن أرضكم ، وليملكن ما بين أبين إلى جرش .

وقال شق : أحلف بما بين الحرتين من إنسان، ليهبطن أرضكم السودان وليحكمن ما بين أبين إلى نجران .

يقول الجاحظ : كان كهان العرب يتحاكم إليهم أكثر أهل الجاهلية ، وكانوا يدعون الكهانة ، وأن مع كل واحد منهم رئيساً من الجن ، مثل حازى جهينة ، وشق ، وسطيح ، وعزى سلمة وأشباههم ، وكانوا يتكهنون ، ويحكمون بالأسجاع ، وكان منهم ضمرة بن ضمرة ، وهرم بن قطبة ، والأقرع بن حابس ، ونفيل بن عبد العزى ، يحكمون وينفرون بأسجاع ، وكذا ربيعة بن حذار .

* * *

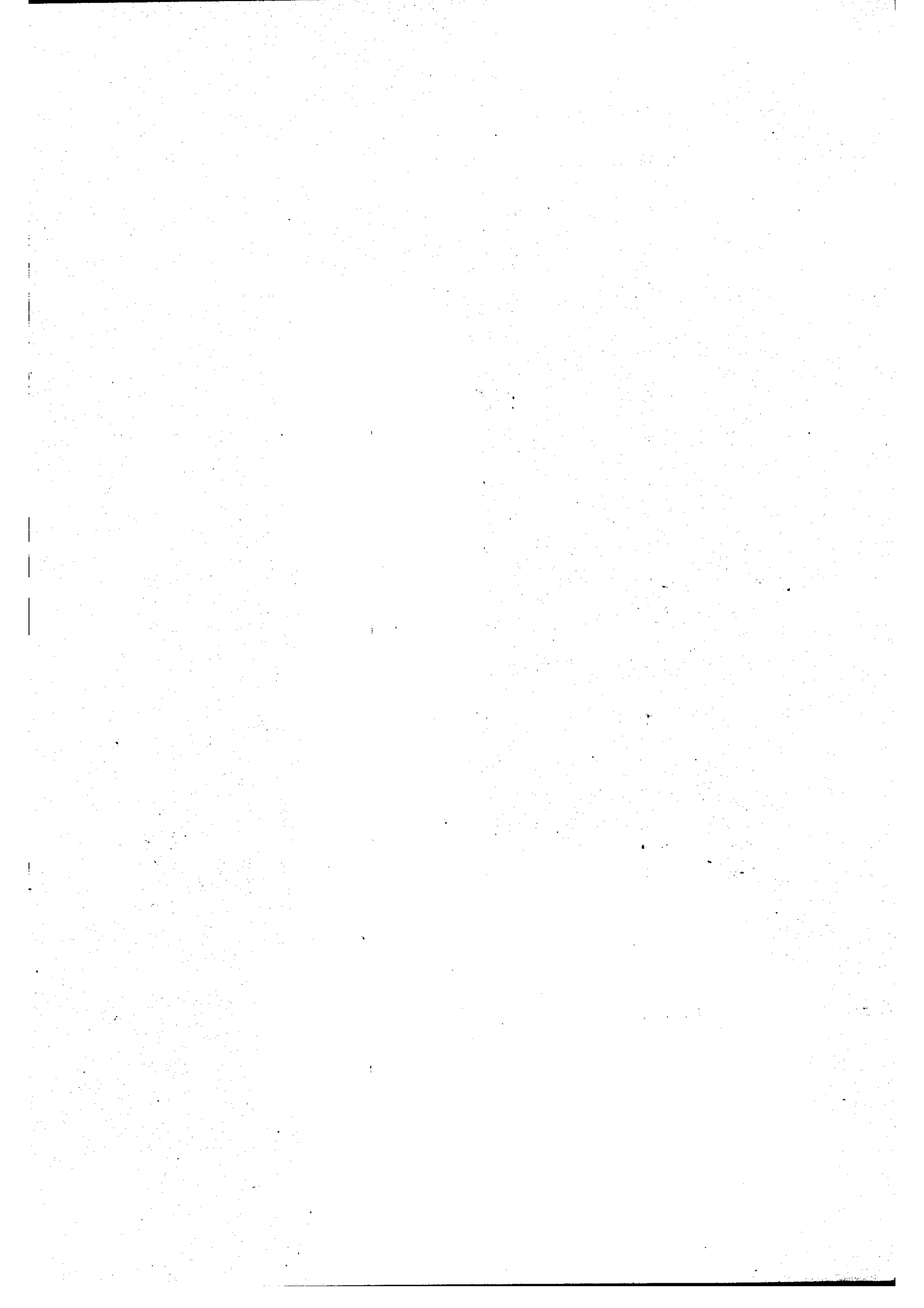


# خاتمة الكتاب

دراسة الأدب الجاهلى ينبغى أن تكون فى ظلال قيم الإسلام النبيلة وإرهاصاته التى سبقته ومهدت لبعثة سيدنا محمد ﷺ فقد كانت نفوس العرب مهيأة فى طبيعتها للتجاوب مع شريعة الإسلام فى أخلاقها وقيمها ولغتها العربية الفصيحة لتصبح لغة الإعجاز فى القرآن الكريم ولغة الشريعة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وسيجد الدارس فى الأدب الجاهلى قيما وأخلاقا وأدبا وذوقا وتاريخا وأمجادا وتصويرا بارعا وأسلوبا رفيعا اتسعت له بلاغة القرآن الكريم وأحاديث النبى ﷺ وجوامع كلمه .

على على صبح



# كتب المؤلف

١ ـ عبقرية ابن الرومي ـ شاعر العصر العباسي    دار الأمانة القاهرة ١٩٧٥م

٢ ـ البناء الفني للصور الأدبية    دار الأمانة القاهرة ١٩٧٦م

٣ ـ الأدب الإسلامي الصوفي حتى نهاية القرن الرابع الهجري    دار الأنصار ـ القاهرة ١٩٧٧م

٤ ـ من الأدب الحديث في ضوء المذاهب الأدبية والنقدية    دار المريخ ـ الرياض ـ السعودية ١٩٨١م

٥ ـ صحيفة بشر بن المعتمر وأثرها في النقد الأدبي    نادي أبها الأدبي ـ السعودية ١٩٨٢م

٦ ـ تاريخ الأدب الجاهلي    دار إحياء الكتب العربية ـ الحلبي ـ القاهرة ١٩٨٣م

٧ ـ المذاهب الأدبية في الشعر الحديث لجنوب المملكة العربية السعودية    دار تهامة ـ جدة ـ السعودية ١٩٨٤م

٨ ـ من الأدب في العصر العباسي ـ دراسة ونقد    مكتبة الكليات الأزهرية ـ القاهرة ١٩٨٤م

٩ ـ في الأدب الجاهلي ـ دراسة ونقد    دار إحياء الكتب العربية ـ الحلبي ـ القاهرة ١٩٨٥م

١٠ ـ الصور الأدبية تأريخ ونقد    دار إحياء الكتب العربية ـ الحلبي ـ القاهرة ١٩٨٥م

١١ ـ عمود الشعر العربي في موازنة الآمدي    مكتبة الكليات الأزهرية ـ القاهرة ١٩٨٦م

١٢ ـ معالم البحث الأدبي    دار أبو المجد ـ الجيزة ١٩٨٧م

١٣ - في الدراسات الأدبية للعصرين الإسلامي والأموي بالاشتراك روزاليوسف - القاهرة ١٩٨٧م

١٤ - الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق - الجزء الأول مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة ١٩٨٧م

١٥ - في الدراسات الأدبية للعصرين العباسي والأندلسي بالاشتراك روزاليوسف القاهرة ١٩٨٨م

١٦ - القرآن الكريم معجزة العصور بالاشتراك الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٨م

١٧ - الأدب الإسلامي - المفهوم والقضية بالاشتراك دار الجيل - بيروت - لبنان ١٩٩٢م

١٨ - بحوث أدبية ونقدية وفكرية وإسلامية منشورة كثيرة في مجالات العالم العربي والإسلامي .

# تحت الطبع إن شاء الله تعالى

١ - الاتجاهات الأدبية في شعر عسير نادي أبها الأدبي - السعودية .

٢ - الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق الجزء الثاني والثالث - القاهرة .

٣ - الإجازا في التصوير القرآني دراسة في الأعجاز القرآني - القاهرة .

# فهـــرست

| الموضــــوع | الصفحة |
|---|---|